كرم صابر

أبو عبدو البغل

زبلة

رواية

دار الفُلْيلة

كرم صابر .. زبلة .. رواية

"زبـلـة"

رواية

كرم صابر

إلى كلبتى "وفاء"

التى ماتت أثناء الولادة

" دليل "

(١)

أثناء نزوله من بطن أمه شاهد نفسه كائنًا ضئيلا فى حجم عقلة الأصبع يتساقط من السحب على شاطئ بحر تتصاعد منه أبخرة وسكون.

وقف أسفل الهضبة المرتفعة المحاطة بالمياه، ونظر إلى البراح الممتد، وشاهد بقعة بعيدة تخرج منها يدان ممدوتان نحو جسده، سحبته، وأدخلته وسط نورها الدافئ ليذوب ويتلاشى فى ضيائها.

لكن أصوات الشيالين الذين هرولوا بالأقفاص من حوله أعادته من السماء، ليجد نفسه قطعة لحم ملفوفة بملابس مبلولة بالدم ملقاة بجوار سور السوق.

بكى وعوى كى تغيته أمه التى انشغلت بشجار التجار الذين داسوا على قدمه اليسرى.

صحت من غفوتها، وتركت خضارها، رفعته من تحت أقدامهم المفلطحة، ونظرت حزينة إلى عظمته اللينة التى خرجت من لحمه الطرى، وجرت إلى حجرة الإسعاف المدفونة داخل جدران السور.

نهرها الممرض، تاركًا نظارته تهتز على أنفه قائلاً: "معندكيش رحمة، تولديه النهارده، وترميه لحمة حمرا فى الشارع، فكراه زبلة، يا جاهلة".

لم ترد على بذاءته، ووافقت على الاسم الذى أطلقه، وقالت لنفسها: "زبلة، زبلة، المهم يعيش"، وعادت مرة أخرى إلى جوار أقفاصها، حاملة درة عينيها المولود خفيفًا، لكنه أصبح ثقيلاً بسبب الجبس الملفوف حول جسده.

نظرت متعبة من دمها النازف، متوقعة خروج زوجها من باب السوق، ليحملها بخضارها فوق عربته المحطمة، ويعودا إلى منامتهما فى الحارة البعيدة.

حضنت الطفل، وشكرت السماء التى منَّت عليها بابن تسر رؤيته العيون.

(٢)

تربى "زبلة" وسط الكلاب التى تعيش بحجرة أمه التى جعلتها قطعة من الجنة، فدائمًا سريرها منظم، وسجادتها نظيفة، وحمامها الملحق بالحجرة مغسول برائحة الورد، وملابس زوجها القليلة مطبقة بعناية على الترابيزة.

تعلمت الكلبة "هنية" النظام والنظافة من صاحبتها، ففى ليالى الشتاء تدخل وتنام بركن الحجرة وسط أبنائها فى صمت، وفى الصيف تستمتع بالنوم تحت السماء، وتترك كلابها من حولها يتداعبون فى خفة، كأنهم فى يوم عيد.

اعتبرته الكلبة أحد أبنائها، فحين تضعه "لواحظ" على الأرض أثناء مضاجعة زوجها، تلحس وجهه برفق، فيزحف إلى بطنها، ويرضع من ثدييها مشاركًا كلابها فى الحليب.

ينظر أبوه إلى الكلبة وهو ينام فى حضن زوجته مدهوشاً، لأنه هو وابنه يشعران فى نفس الوقت باليُمْن لهذه الكائنات الطيبة التى تمدهما برحيق الحياة.

وحين تنشغل أمه بفرشتها، يزحف حول حوض الطلمبة، ويتقاسم مع الوزة العجوز بقايا الأكل، تزمجر وتكاكى، وتضربه بجناحيها فيقع على الأرض، فتجرى بلهفة وتسنده بفمها الطويل حتى يقف مرة أخرى وسط صغارها.

وفى الليل يسحبه جارهم العجلاتى برفق ويدخله حجرته، يطعمه ويجلس أمامه منتشيًا بهالته، ويحكى له عن الغول المتحول إلى بقرة حلوب.

رأى الطفل شعيرات النور تتخلل ظلام الوحش المتراكم بروحه ليتلاشى هاربًا من بركته العطنة، فاتحًا بأعماقه طاقة المحبة، ومغلقًا باب الرغبة، وناظرًا إلى عجول البقرة كأنهم أولاده.

غرغرت عيون الوحش حين لامس بأظافره رقبة البقرة، فصرخت مستغيثة ليلتهمها ويترك أولادها ينعمون فى سلام، شعر بدموعه تتسحب إلى خدوده وهو يخر صريعًا بجوارها متحولاً إلى كتلة من العطاء حين شعر باحتياجها للحياة.

سمع "زبلة" نبرات صوت الوحش الحنون، وشاهد ملامحه المتغيرة وهو يجرى وسط اليمام وعبير الحقول مواصلًا استسلامه للنور.

يخرج من حجرة العجلاتى، ويعود إلى أمه ممتلئًا بالقوة، يقف على قدمه العرجة أمام غرفتها، ويرفع جلبابه القصير، ويطرطر على طوب الأرض، وينظر إلى السماء ممتنًا لبراحها الذى يضم كل هذه الكائنات تحت سقف واحد.

(٣)

عندما يخرج من الحارة مع أقرانه إلى شارع الحى يصاب بالهلع من أكوام القمامة وأصوات البشر والسيارات.

يتسحب من وسطهم، ويرفض مشاركتهم فى سرقة المارة، ويعود إلى منزل أمه مستمتعًا بالدفء بين كلابها، يقذفهم بالكرة وينط ويزحف حولهم كأنه ملبوس بألف روح، يلتقط الرمح الذى يطير بأقصى سرعة، ويسابق الريح مبتهجًا كشعاع الشمس.

يتسامح فى حقه، ويرفض إيذاء أقرانه، فبمجرد وقوع الشجار بينهم يتدخل ليفصلهم عن بعضهم، ويداوى غضبهم بلسانه الطيب.

لا يندهش المارة أثناء ركوضه خلف الباصات لأن قدمه اليسرى رغم عجزها تعطيه هالة تجعلهم مبهورين برؤية عزيمة كتلة من اللحم تتدحرج على الأرض، وتنطلق غير عابئة بالحفر أو المخاطر.

يفتحون أفواههم مأخوذين من هذا الزبلة الذى يجرى كالبطة وسط الحارة غير عابئ بعجزه الذى أصاب الجميع بالصمت.

حين دخل السباق مع "حربى" ابن الكهربائى بدراجاتيهما المؤجَّرتين من عند "موسى" شعر بعجز قدمه ، فرفعها على الكدر، وأدار البدال بقدمه اليمنى بسرعة مهولة.

سبق صاحبه، لكنه عجز نهاية الحارة عن إيقافها، فارتطمت بالحائط، واضطر للمبيت فى منزل العجلاتى، حتى لا تعدد أمه على دمه النازف.

عند منتصف الليل دقت قطة على باب "موسى"، فاستقبلها بترحاب وعرفها عليه، فاقتربت منه ولحست قدمه العاجزة ، نظر داخل عيونها فشاهد بقعته البيضاء التى جاءته فى حلمه تناديه.

أشار العجلاتى إلى القطة لتبتعد، فجرت من جواره، ووقفت على الباب فى مواجهة كلب ضال حاول الدخول لإيذائهم، زمجرت ورفعت مخالبها أمام وجهه المتأهب للشر، فشخط العجلاتى بغضب : "امشِ لحالك يا أجرب"، فهرب، وعادت القطة إلى جواره محزونة.

نظر "زبلة" إلى عينها، لكنها كانت منطفئة ومملوءة بالدموع، وضاع البياض الذى كان يملؤها.

(٤)

خرجت "لواحظ" مع والده، وتركته بجوار "أنيسة" بائعة اللب، ونبَّهت عليها بألا يغيب عن عينها حتى تعود من السوق.

لم يتصور أحد أن تغط "أنيسة" بالنوم ، "أنيسة" التى تعد حبات اللب والسودانى بأكياسها، وتعرف حجم استهلاك كل فرد فى الحارة، وتشم رغباتهم حين يقفون أمامها لشراء التسالى، تنام وتترك الصغير يمشى دون هوية ليتجاوز الأرصفة والسيارات، ويتوه فى الشوارع الجديدة التى لا يعرف أحد هوية سكانها.

سار هائمًا حتى وجدته طفلة يشرق من عيونها الضياءُ، أعالته واعتبرته أخاها، وطالبته بالصمت حتى يتحاشى إيذاء أقرانها.

تسحبه أثناء سروحاتها، وتشترى الأرغفة وتطعمه كأنه وليدها، ويمشى إلى جوارها فى بطء، مندهشًا من وجوه الناس المتبدلة.

تجلس أمام محل كشرى لتريح قدميها، فيمتلئ أنفه برائحة الصلصة، تتركه لدقائق وتعود حاملة علبة مغلقة، تفتحها ويأكلان بشهية الأرزَ الغارقَ فى العدس.

ينظر المارة إليها بغرابة ويستكملون سيرهم، لكن سائق توكتوك يتوقف بجوارها ويداعبها كفاسقة، فتسبه وتقوم لتستكمل الدورة، وتنادى من قلبها على مناديلها وأقلامها.

يسير "زبلة" بجوارها مراقبًا الألوان المختفية خلف الغبار الذى يملأ السماء، يرمق خطوط اللوحات المعلقة فوق الدكاكين، ويراقب القطط والكلاب التى تتشاجر حول أكوام القمامة، ويتمنى العودة لحضن "هنية" وكلابها.

حين يأتى الظلام تعود "شوق" إلى مخدعها تحت الكوبرى، تنظف الكراتين، وينامان متلحفين بالخرسانة التى تُخفى لون السماء.

وفى الصباح تسحبه لتلقِّط رزقها، وتتحول عيونه الثاقبة إلى مرآة تبحث فى عيون زبائنها عن براءتهم، لكن البنت التى لا تعرف الأمان تبحث عن الود المدفون بجيوبهم.

يشعر وسط النواصى التى تتنقل بينها بضخامة الكون، ويعامله المشترون بحب لم تتوقعه، وتحابِى الكلاب والقطط عليه، ويناديهم بأسماء أقرانه، مدهوشًا من عيونهم المملوءة بالسعادة.

(٥)

طوال فترة غيابه كانت أمه تبكى أثناء يقظتها ومنامها، ولولا صراخها أحد الأيام ما تحرك أبوه، وبَّخته وعايرته بريباية المَرَة، فتنحنح ومسح دموعها، وأخذها بحضنه، وركب الكارو مكدورًا، ودار فى الشوارع باحثًا عن ابنها.

اتفق مع "موسى" ليعيره ميكرفونه، وكلما وقف على إحدى النواصى، نادى باكيًا: "عيل تايه يا ولاد الحلال، اسمه زبلة، وهدومه مقطعة، ولسانه تقيل، ورجله الشمال عرجة".

يستغرب رواد المقاهى والواقفون على النواصى نداءه، ويقترب بعضهم من حماره ويسأله عن وقت غيابه، كأنه يواسيه فى مصيبته.

دار "توبة" وسط حوارى وأحياء كثيرة، وتوقف أمام عشرات المارة يصف العاجز، باكيا وحيد أمه التى حلفت عليه بألا يدخل البيت إلا برفقته.

أثناء مروره بجوار الكوبرى، شاهده يسير مع إحدى البنات، فجرى وراءه، وحاول اللحاق بالطفلة التى اختفت من أمامه كالطير ، وعاد بابنه سالمًا غانمًا إلى أمه.

نتيجة الفرحة العارمة بالحارة، رفض العجلاتى أخْذ مقابلٍ لميكرفونه، لكنه لم يتردد فى حمل أكياس البطاطس التى وضعتها "لواحظ" فى يديه ليعود إلى حجرته مجبور الخاطر.

وفى اليوم التالى أصر "موسى" على أخذه لينام معه، وعندما استفرد به، سأله، كيف تمكن من عبور كل هذه الأسواق؟

حكى الطفل عن سرب الحمام الذى نادى عليه بعد غفوة "أنيسة"، فلبى نداءه، وسار داخل ظله المرسوم على الأرض كدائرة، مشى بداخلها لتحميه من ركام السيارات وأقدام الباعة، وحين اختفى الظل، توقف ونظر إلى السماء، فلم يجد أثرًا للحمام، فجلس على الرصيف لا يدرى كيفية عودته، وفوجئ بـ "شوق" التى عاشرها عدة أيام كأن داخل عينيها سبيله الذى سيعيده إلى البراءة التى ملأت أعماقه يوم ولادته.

نظر العجلاتى إلى عينه بخشوع، وحدَّثه عن الأماكن التى كان يسرح فيها مع الطفلة، ووصف صوت الصبى الذى حاول اغتصابها أثناء نومها بجواره، وسرد مجريات الماضى كأنه يقرأ من صفحة مفتوحة بعينه، ومن وقتها اعتبره الطفل دليله ومرشده.

(٦)

أصرت أمه على دخوله المدرسة البعيدة، وأجبرت أباه على استخراج شهادة ميلاده من المصحة، وفى اليوم الأخير قدمتها إلى "عوف" الناظر ليقبله ضمن الصفوف.

أخذت فى يديها "زوجة عوف" ليتغاضى عن صوره الممزقة، أمسك الرجل الملف بغيظ، ووضعه بالدرج، ونظر إلى زوجته قائلًا: "الأصل غلاب".

خرجت "لواحظ" من عنده مسرورةً، وذهبت إلى سوق الكانتو المملوء ببقايا الملابس والأجهزة، واشترت مريلة وكراسة وقلمًا، وعادت مزهوةً بدورها.

وفى اليوم التالى وضعت أدواته فى كيس المخدة، وأوصلته حتى باب المدرسة، احتضنته وبكت كأنه راحل إلى بلاد بعيدة، وودعته واضعة كل آمالها فى فراسته ونبوغه.

راقبت الأمهات الواقفات بجوار السور فى انتظار دخول أبنائهم الباكين إلى الفصول كأنهم عصافير مذبوحة.

وحين صرخ "حربى" ابن الكهربائى رافضًا دخول المدرسة، جرت ناحيته واحتضنته، رفعته إلى السماء، وداعبته، حدثته برفق عن أهمية العلم، فنظر داخل عينها بشفقة، ونزل على الأرض ليدخل البوابة مستسلمًا لهالتها.

عادت إلى فرشتها سعيدةً بدورها، وحلمت بتخرج ابنها دكتورًا يعالج الجيران من أمراضهم المستعصية.

نظرت إلى السماء وحوض الطلمبة بامتنانٍ، ودخلت حجرتها، رتبت سريرها، وكنست الأرضية، وأزاحت الستارة عن باب الحمام الصغير الملحق بالحجرة، طهَّرته، وملأت البستلة بالمياه، وخرجت للفرشة، نظفتها، ونفضت الخضار، لتستقبل الرزق الوفير.

بعد ساعتين كان الناظر يسحبه من يديه ليعيده إليها لقتله العصافير التى غردت فوق الأشجار، سبها "عوف" لقلة رعايتها وإهمالها، وصرخ فى وجهها: "ناس حوش".

نظرت الأم إلى عين ابنها ولم يجب، لكن الرجل المسئول عن سلامة آلاف الأطفال حذرها من عدم اقترابه من السور، وإلا بلغ الشرطة، وتم إيداعه بالمصحة.

احتضنت وليدها، وقالت بأسى باكية: "مصحة إيه يا عوف، هو ملوش أهل ولا إيه؟"

لم يدافع عن نفسه، لكنه حكى لأمه عن العصفور الذى دخل الفصل من ضلفة الشباك، فأمسكه المدرس، وقطع رقبته وألقى برأسه على الأرض فى كرهٍ.

حمله "زبلة" بين يديه، وألصق رأسه المقطوع بجسده، ورماه من الشباك فى عين الشمس فطار العصفور فى السماء، ثم عاد مغردًا ووقف على السبورة، ونظر إلى المدرس بأسى، فضحك الأطفال، ونظروا ببهجة ناحية الطير المغرد، فقام المدرس بجرّه على الأرض حتى حجرة الناظر، واتهمه بذبح العصفور وإهانته.

أخذته أمه بحضنها، ومسحت دموعه، وقالت: "ملعون أبوهم، العلم فى الراس مش فى الكراس".

تركها وذهب إلى العجلاتى الذى كان جالسًا مذهولاً فى ركن حجرته، لم يرد على سلامه، وظل ساعاتٍ يحدِّث الحوائط ويسألها عن سبب وجوده.

كان يبكى محسورًا على كل ما فعله فى حياته، ويسأل الفراغ: "لماذا تصر على تركى بالوحل؟"

وحين هم "زبلة" بالخروج، عاد الرجل إلى وعيه، ونادى عليه، وظل طيلة الليل يحدثه عن تعاويذ تعيد الحياة للميتين، وتزيل الحزن من القلوب، وتعيد الغائبين إلى موطن والدتهم.

(٧)

جرت "لواحظ" إلى حجرة العجلاتى الذى كان يئن من الآلام، احتضن ابنها قائلاً: "النهارده آخر يوم، خلى بالك منه، ده أمانة".

لم يفهم "زبلة" ما يدور، لكنه شعر بالنور المشع من وجه الرجل الذى عاش وحيدًا بحجرته ودكانه دون أن ينطق لسانه بكلمة بذيئة.

تكالب الجيران على حجرته ليودعوه ويذكروه بصبره فى مواجهة جبروت "سكسكة" صاحبة المنزل التى حاولت طرده من الحجرة بإلقاء الخراء على سريره.

لم يرد عليها أبدًا أو يندهش من خصومها الذين طالبوه بمواجهة لسانها السليط، كان يقول ليطمئنهم: "هل عرفتم أبى سارقا، هل رأيتم أمى ساقطة، إن سكسكة لا تشتمنى بل تهين شخصًا لا أعرفه".

حين علمت "سكسكة" بخبر مرضه، هرولت ناحية حجرته، ودخلت فى حضنه وبكت قائلة: "سامحنى يا موسى، افضل معانا ومش هاخد منك الإيجار لآخر العمر".

لكن العجلاتى الذى علَّم الجيران التسامح، ظل يحكى بصوت مسموع عن بيتٍ خشبى وسط السماء ينتظر وصوله ليتنعم فيه ويستريح.

كان يصف البيت المحاط بحقول الخضرة التى تغرق أوراقها فى الندى والبخار، وتلتف حول جوانبه قناة نظيفة ترتفع على ضفافها أشجار التوت والصفصاف والزهور اليانعة، وتمتلئ بمياه صافية وأسماك ملونة تتحدث مع حيوانات ترمح فى البوادى وتضحك مع بعضها بصوت عالٍ، وتنادى عليه ليلحق بهم وسط البراح الذى يغطى الكون.

نظر الطفل فى عينه، وشاهد بقعته الصافية تمد يديها نحو جسده وتحتضنه، وحين هم بالدخول إليها، أغلق العجلاتى عينيه ورحل.

غسَّلته "لواحظ" التى اعتبرته بمثابة أخيها، ووضع "توبة" و"عطية" جثته بالخشبة التى حملها رجال الحى وساروا حوله يذكرون محاسنه وأفضاله.

وحين وصلوا إلى سَبَت "أنيسة" وفرشتها وسط الحارة طارت الخشبة من فوق أكتافهم وحطت إلى جوارها.

عمَّ الصمت، كأن الجميع ماتوا أو فقدوا حواسهم، حتى صرخت بائعة اللب معددة فقد الرجل الذى شاركها أفراحها وخفف أحزانها، احتضنت الخشبة التى كانت مفتوحة، وعاتبته لتركها دون ونيسٍ.

شاهد الطفل أثناء صمتهم وحزنهم على فراق الرجل، أسرابَ الطيور المحلقة فوق رءوسهم تخطف جسد العجلاتى وتطير وسط البراح، ورغم الغيمة والغفوة التى جالت على عيونهم فإن جسد العجلاتى السابح فى السماء أزاح عن نفسه الكفن الأبيض، ومد يده المتحولة لشعاع مضىء إلى جسد "زبلة" ليجفف دموعه.

وضع فى قلبه رحيق الأمل الذى أعاده إلى شاطئ البحر الذى رآه يوم مولده، فصرخ دون إرادته فى وجه "أنيسة" كى يسمع وصايا الراحل.

استعادت المرأة وعيها، وعافرت لتقوم على قدميها لتغلق الخشبة التى شاهد الجميع خلوها من جثة الرجل الذى عاش بينهم كملاك، واختفى دون معرفة أحدٍ هويتَه أو مصيره.

" **براءة** "

(١)

اضطر "توبة" إلى أخذه فى سروحاته بالكارو لتتفرغ زوجته لفرشتها ورزقها، يجلسه بجواره على العريش فخورًا بنسله الذى جاء من صلبه، ويضحك مدهوشًا من لون أسنانه وضخامة أنفه، ويشد اللجام مبتهجًا بصوت الكلاب التى تجرى حوله كأنها تغرد لقدومه.

يتوقف فى موقف العربجية الذين يحملون ابنه فوق ظهورهم، ويجرون بحمله الخفيف مقلدين صوتَ الحمير، يقذفونه فى الهواء فيطير، ويتمنى ألا يعود، لكنه يجد نفسه مرة أخرى فى أحضانهم المليئة بالمحبة.

يعود الرجل من الموقف راضيًا بنصيبه من الحياة، يداعب قضيب ابنه الصغير ويسبه بحب، فيغفو "زبلة" ويذوب وسط براح الكون، ويأتيه العجلاتى بوجهه المنير، ويسحبه صامتًا إلى حجرةٍ مخفية بباطن الأرض تمتلئ جوانبها بأرفف مكتظة بأثير أبيض متنوع الألوان.

يشير "موسى" إلى الرف الأول المكتوب عليه أمل ويقول: "هو أمنية كل الناس والسبب فى مواصلتهم الحياة"، وينغزه ليتيقظ من دهشته مستكملاً: "لكن آمال الناس فى الرحلة ليست متشابهة"، ويسأله: "هل ترغب فى هذا الاختيار؟" فيجيب الصبى بتلقائية: "نعم".

يصمت العجلاتى، مشيرًا بأصابعه إلى باقى الأرفف، واصفًا مضمون الحب والسلام والخير والود والقبول والعطاء.

يدربه على كيفية تغيير مشاعر الكره بتفريغها فى البحر وإزالة آثارها من مخزن المشاعر، وملئها بأثير المحبة والعطاء، وينصحه كى يهزم الظلام الكامن بروحه بأن يبذل الجهد لجلب النور إلى أعماقه، وتطهير مخزنه من بقايا البغض.

يحمم الصبى فى حوض أثيرى يمتلئ بكل المشاعر الآملة، ويزيل عن عينه الغشاوة، قائلاً فى وداعِهِ: "ليس عليك إلا تطهير مخزن أعماقك .. لا تنس المكاييل".

لم يهتم بنصائح العجلاتى أو محتويات الأرفف ويقول: "لا أرغب إلا فى العودة إلى نقطتى البريئة التى أذابتنى فى ضيائها يوم ولادتى، ليس لى إلا هذا الحلم، سأعيش له ولا يهمنى غيره".

يصرخ "توبة" فى الحمار ليسرع من خطواته، فيصحو "زبلة"من النوم على صوت العجلات والباعة، ينظر إلى السماء الواسعة، ويتعجب من النجوم التى تتحرك فوقهم وتختفى خلف السحب، ثم تظهر بكامل بهائها، كأنها تلعب مع البشر لعبة الغمِّيضة.

(٢)

أثناء عودتهم أحد الأيام من السوق، حاول اللصوص سرقة الحمار والكارو المحمل بالخضار، استوقفوا "توبة"، وأشهروا المطاوى بوجهه، ولم يستجيبوا لتوسلاته، وزجره أحدهم بسن المطواة فى رقبته.

وحينما شاهد "زبلة" دموع والده تترقرق، داس على العرجة واقترب من رئيسهم "زخارى"، ونظر داخل عينه بعتاب كأنه يأمره بالتوقف، فصرخ الرجل كالفأر ووقع دون إرادته على أسياخ الكوبرى التى دخلت فى ظهره وصلبته، وهرب أتباعه مرعوبين من صوته الجعورى.

اندهش اللص الذى يصاحب المخبرين من عين الصبى، وقال للعربجى: "دا أنا بحبك يا وله، متموتنيش"، لكن "توبة" الذى شعر بالفخر جر جثة الجريح بشموخ، وألقاها فى النيل.

ملَّس على رقبة الحمار، وركب على العريش سعيدًا بانتصاره، أمسك الأمشة بحرفية، وأدارها عدة مرات فى الهواء، ولطعه على كفله، قائلا: "شيه يا حمار وإلا أخلى زبلة يبصلك".

نهق الحمار سعيدًا بنجاحهما، وداس بحوافره على أرضية الكوبرى، كأنه يعزف لحن النجاة.

من خلفهم كانت الشمس تشرق، وتلقى بشعاعها على المياه الملوثة بدماء اللص الذى قاوم وقاوم رغم الألم، حتى وصل إلى شاطئ الجزيرة المملوء بأشجار الورد الغارقة فى القمامة.

نظر الصبى وسط أشجار الجزيرة، وتخيل نفسه عصفورًا يتنقل بين أغصانها، صحت الطيور على غنائه، وغردت مرحبةً بوجوده، فأشار على جثة "زخارى" الجريحة، فسحبوها إلى اليابسة وداووا جراحه، وأعادوه إلى الحياة.

تيقظ حرامى الحمير غير مصدقٍ ما حدث، نظر حوله مفتونًا بألوان الورود الزاهية، وأمسك الحجر الذى سند رأسه وحال دون غرقه، وقذف العصافير التى طارت ضاحكة من عمى بصيرته.

(٣)

وثق "توبة" بقوة ابنه المجهولة، وظل يحكى للعربجية كأنه أعجوبة زمانه عن قتله حرامى الحمير بنظرته الثاقبة، يخطفونه ساخرين من هوسة والده، ويلسعونه بالأمشة على ظهره، فيضع يده على العرجة، ويجرى كالبطة متجنبًا ألعابهم المخيفة.

ينشغل "توبة" بتنزيل إحدى سيارات الخضر، ويترك ابنه بجوارهم ليحرس الكارو، فيفرح الصبى لثقة والده، ويتراقص أمام الحمار، يجهز العليقة ويعلقها فى رقبته، يمسح كفله، ويزيل الروث عن أقدامه، ويحابى عليه كصديق، وينظر الحمار فى عينه بعطف وود كأنهما إخوة.

يضع سرجه فى يديه، ويحكى عن مغامراته مع الكلاب التى يعيش بحجرتها، يقلد الوز ويكاكى، ويدور حوله رافعًا مؤخرته، فينهق الحمار ويضحك، فيعود ويركب على ظهره، وينغزه فى جنبه، فيزمجر ويرفص بأقدامه ببطء خوفًا من وقوع الزبلة على الأرض.

أثناء نهيق الحمار، مرت زفة كبيرة يتوسطها بعض الرجال حاملين الطبل والمزامير، فيترك الحمار، ويدخل وسط الحلبة، ويظل يرقص وسطهم كأخ للعروسة، ويندهش الجمع من قدرة صبى بكل هذا العجز على الخفة.

يضعونه داخل دائرة، ويعطونه عصا رفيعة، ليضعها على العرجة مرةً، وينط من فوقها مرة أخرى، ثم يضعها على جبينه، ويدور وسطهم كأنه سيطير إلى السماء.

دار ودار حول نفسه حتى وجد نفسه وسطَ جبالٍ مرتفعة، نظر حوله ونط خفيفًا من جبل إلى آخر كأن قدمه العاجزة عمود خرسانى لا حد لقوتها.

ومن بعيد شاهد حدائق وأشجارًا وسط رمالٍ شاسعة، كادت تموت من الجفاف بسبب منع الصخور الضخمة وصولَ المياه إلى جذورها.

دار بخفة على أنغام الموسيقى الصاخبة ورفع كتل الصخر بيديه، وقذفها بعيدًا وسط البحار لتمر المياه إلى الأرض العطشى، ومع هدوء الموسيقى شاهد سراسيب المياه تتدفق وتجرى فى سلام إلى جذوع الأشجار لتعيد النضارة إلى أوراقها.

عندما أفرغ "توبة" حمولته، وعاد إلى الكارو لم يجد الحمار ولا ابنه، لكنه وجد الزفة منصوبةً، وشاهد الجمع يحتفل بـ "زبلة" الرقاص.

اخترق الدائرة، وأمسك بتلابيبه فى جنون ليعيده إلى وعيه، ويسأله عن الحمار، فصمت ابنه كميت، فضربه على وجهه بالأمشة لينطق، فارتمى صريعًا على الأرض، ولم يفق إلا فى حجرة "لواحظ" التى بكت وعددت أيامًا طويلة، لضياع إحدى عينيه من ضربة العربجى والده.

(٤)

توطدت علاقة "زبلة" بأولاد الكلبة الذين ينادى عليهم بأسماء الزهور، ويسيرون بجواره أينما ذهب، وفهمت "هنية" كلامه بإشارات عيونه ويديه، وحين عض أحد أبنائها بطن قدمه، هجمت عليه وزمجرت غاضبة ممزقة رقبته، نظر الكلب إلى أمه بحزن وغرغر مغادرًا قطيعها فى صمت.

حابت "لواحظ" على ابنها، وأجلسته طوال النهار بجوارها على الفرشة، وعرَّفته أحجام الموازين وطرق نقض الخضار ورصه وأسعاره، وأدى ضياع إحدى عينيه وعرجه لعطف النساء عليه، والتهافت على فرشتها لشراء خضارها.

افتتن الصبى بعمله الجديد، ونادى على خضارها بأوصاف بديعة، وغنى لألوانه وأحجامه كبلبلٍ يبحث وسط الحدائق عن زهرته النضرة، وفتح الله على الخضرية لدرجة إيمانها بأن العاجز مبروك ومحمى من السماء.

تتركه آخر الليل وتدخل حجرتها لتجهز العشاء وتطهر حمامها، فيجلس وسط خضارها يحدِّثه عن الفروق بين الكائنات التى تقوم بالإيذاء عن قصد والذى تفعله عن جهالة، وينصحهم بأن يتعايشوا مع الحياة ويقبلوا وجودهم ولا يهتموا بميزات البشر أو الطيور؛ لأن الجميع سيصل فى النهاية إلى الشاطئ.

يضحك معهم كإخوة ويحكى لهم عن الرجل الذى تحول إلى تراب، وحمله أحد الحمارين وألقاه فى الحقل، فذابت ذرَّاته ودخلت جذوع إحدى الأشجار ومرت إلى فروعها حتى تحولت إلى زهرة يانعة، امتصت حليب الشجرة وأصبحت ثمرة، فقطفها أحد التجار وباعها فى السوق ليأكلها إنسى وتذوب فى بطنه وتعود مرة أخرى ككومة تراب أمام بيت الحمار الذى حملها وألقاها وسط الحقل مرة أخرى.

فى صباح أحد الأيام وأثناء غنائه للكلاب والوز والخضار، سمع صراخ إحدى القطط التى دهستها عجلات توكتوك أمام دكان "حنفى" البقال، فهرول ناحيتها، وصنع بيديه دائرة حول جسدها النازف، وأدخل عظامها المدهوسة فى لحمها، وحدثها بصوت عال أمام المارة الذين توقفوا مذهولين من رؤية العاجز الذى يعيد الحياة للقطة الميتة.

توسلها بصوت مرتفع أن تسامح السائق المتهور، وقطع كوفيته البالية ولفها على رقبتها، وعزم عليها، واستحضر روح العجلاتى لتقف القطة على قدميها، وتسير أمام الجمع مدهوشةً من عودة النور إلى عينيها.

عاد إلى فرشة أمه فى صمت، ولم يهتم بنظرات البقال الحاقدة أو تلسين "عوف" و"سكسكة"، وانشغل بالمناداة على الخضار: "الجرجير الطازة، الفجل الورور".

خلال شهور قليلة زاد رزق أمه خمسة أضعاف، فاشترت جلبابًا جديدًا لزوجها، واشترت بعض الحلل والأطباق وملاية ملونة ، وداءبت على شراء اللحم أو الفراخ كل خميس.

تفرغت للفرشة ولرزقها المنهمر، وتوطدت علاقاتها بالنساء كأخت، وبعد شهور اشترت لزوجها حمارًا جديدًا، واندهشت من عيونه الناعسة وأذنيه المتدليتين.

شبهته بجذع شجرة الخروع كونه لا يتحمل الجر أو الركوب رغم طوله الفارغ وعضلاته المفتولة، ودعاها ذلك للاتفاق مع تجار السوق لإرسال الخضار إلى فرشتها، والاستغناء عن خدمات زوجها وحماره المخصى.

(٥)

أعجبت العايقة بخفة "زبلة" أثناء جريه وراء الوز والكلاب، أخذته بحضنها وقبلته كملاك، وطلبت منه توصيل الخضار إلى منزلها.

وافقت أمه بشرط عودته سريعًا إلى فرشتها، ونظرت إليها بريبة، قائلة: "أمال لو مكنش أعرج، كنتى عملتى إيه يا سنية؟!"

سحبته المرأة مأخوذة بهالته حتى وصلت إلى باحة منزلها، توقف مدهوشًا من رائحة البراح، ونظر إلى الشبابيك والأبواب التى عشش عليها اليمام، ونظر بعيون إحدى العصافير التى نادته، فغمم مثلها يلاغى ودها.

غاب لدقائق ورأى روح العجلاتى كيمامة تطوف بالمنزل، وتهنئه على مرزقه الجديد، سحبته فى ومضة عين إلى براح السماء وأضاءت مصباحًا فى قلبه، وشاهد العجلاتى ينام داخل منزل يمتلئ بالأطفال المبتهجين.

تحول منزله إلى واحة كبيرة خضراء، ترعى فيها جواميس وبغال ترمح وتطير، تبدلت ملامحهم فجأة إلى وجوه بريئة تشبه الحوريات وتتراقص حوله لانفتاح طاقة النور بأعماقه.

احتضنه العجلاتى مزيلاً دهشته، وتحولت حديقته إلى حى كبير مملوء بالشوارع الواسعة، ويتدلى من شبابيك بيوتها نساء وأطفال ورجال بوجوه معجونة فى سائل أشبه بأثير المحبة الذى أطلعه عليه بمخزن مشاعره.

سأله "زبلة" عن سبب غيابه الطويل، لم يرد، وطار بعيدًا وسط البراح المفتوح على السماء.

اندهشت العايقة من صمته الطويل، وطالبته بالانتظار فى الباحة حتى تعود من الحجرة التى سمعت بداخلها أصواتًا غريبة.

وحين طار اليمام والعصافير وغاب السكون، دخل وراءها ونادى عليها كى لا يتأخر على أمه، فوجدها عارية فى حضن "الـ فرماوى" تتأوى من فرط السعادة.

شعر بنفسه كصنم مغروس فى الأرض، وظل يتفرج على جسديهما الذائبين وانسجامهما الذى غيبهما عن الوجود.

نظر إلى حوائط الحجرة التى ظهرت عليها بقع بيضاء كالسحب، وتأمل أقدامهما الملتفة على بعضهما، كأنهما لبلاب يحاول تشبيك أعرافه اللينة فى بعضها للأبد، وفوجئ بانتفاخ عضوه الذى بلل بنطاله على غير إرادته، فترك أكياس الخضار وعاد لأمه وهو يشعر أنه كائن ملبوس بالرغبة.

(٦)

تلمست النسوة المترددات على فرشة أمه هالته الجديدة، يداعبنه بحب ويضحكن بحياء مكشوف من نظراته المدقوقة على جدران أعماقهن ليفتحن قلوبهن، فيضم أرواحهن كأخوات، ويبتهجن متناسيات آلامهن.

وحين تنادى عليه الجزمجية يلبى نداءها ويذهب إلى دكانها، تداعبه وتمسك قضيبه، فيهرب مبتعدًا، تجرى وراءه وتزنقه فى الحائط، تلامسه، ليمدها بريق الحياة، فيطبطب على ظهرها بود، فتتركه ليرحل كزوجها الهارب، وتجلس على كرسيها، تدق المسامير بقوة فى نعول الجزم.

فى أحد الأيام شاهد بنت "الفرماوى" تسير فى الشارع كزهرة يانعة، فانفتح قلبه لهالتها وتزايد نبضه كأنه سيفارق الحياة، نادت عصافير السماء عليه لتعيده إلى وعيه، وشعر كأنه وسط الجبال الساكنة والذى سقط من بين صخورها على شاطئ البحر فى حلمه.

ظل يراقبها عدة أيام، ويسأل المترددين على فرشة أمه عن هويتها، واندهش الجميع لاهتمام صبى أشبه بالأولياء ببنت "سنية" التى يعرف الجميع ماضيها مع الرجال.

تفنن فى وصف روحها لأمه التى نهرته، لكن الصبى لم يكن يشعر إلا بالدفقة التى تأتيه أثناء منامه ويقظته، فيواصل حواراته مع طيفها الذى لم يغب عن خاطره، كأن حياته مرهونة برى قلبها.

أثناء الليل كان قضيبه ينتفخ على غير إرادته ما يضطر "توبة" إلى إلقائه على السجادة كى يعاقر طيفها أو يحدثها كما يشاء، ويعود للنوم على سريره مستمتعًا بحضن زوجته غير عابئ بهلوسته مع الكلبة أو الفراغ.

فى أحد الأيام وأثناء غنائه لخضار أمه الصابح شاهد "محاسن" تترجل فى اتجاه "حنفى" البقال، ترك الفرشة كمجذوب، ولم يشعر بقدميه المتحركتين فى اتجاهها، وحين اقترب منها وشعرت بروحه، صرخت وسط الشارع من هالة العشق التى ملأت جبينه.

وصل صوتها إلى قلب أبيها فى دكانه، فهرول "الفرماوى" حاملاً سكينته الطويلة التى يقطع بها الصاج.

وحين اقترب منها سألها: "مالك يا بت؟ " صمتت، فنظر إلى البقال الذى أشار إلى "زبلة" بعفوية، فقام الرجل دون أن يدرى بقطع إحدى يديه المتوسلتين للسماء.

ارتمى على الأرض مصروعًا، وشاهد نفسه ملفوفًا فى شاش أبيض يحلق فى السماء، ولمح من بعيد كائنًا بوجهٍ منير ينادى عليه، احتضنه وسحبه إلى داخله وأذاب جسده فى نوره قائلًا: "ارجع يا زبلة، لم تأت ساعتك بعد".

حينما استيقظ شعر بنفسه خفيفًا، نظر وهو ملقى على الأرض داخل الدكان ، وتهيأت له زجاجات الزيت والمكرونة والأرز المرصوصة على الأرفف الخشبية منازل محاطة بالورود، تسحب بين رفوفها وغاب عن الوعى.

(٧)

ترك الجيران أمه الغائبة عن الحياة، وجروا بجثته إلى المصحة، قام الممرض بتضميد الجرح وتخييطه، ونظر "زبلة" إلى عينه الواسعة، وتراءت له كسماء يتوسطها القمر، دخل وسط ضيائها، ونام فوق السحب.

زجره الممرض ليتأكد من يقظته، وألقى بالقطن المعجون فى دمه من الشباك، وطالبه بالرحيل بعد الاطمئنان على حياته، فداس على العرجة، وسند على كتف أبيه، وعاد إلى الحارة بذراع واحدة.

عندما رأته "لواحظ" يسير كالطائر على العرجة ويضحك، عادت الروح إلى جسدها المنهك، وجرت إليه كمجذوبة، ودخلت حضنه، وملأت ملابسه الغارقة فى الدم بالدموع، ضاحكها وهوَّن عليها، قائلاً: "أنا كنت بعمل إيه بإيدى الاتنين ياما، كفاية علىَّ إيد واحدة!"

فى نفس اليوم جلس أبواه مع رجال الحى الذين حكموا بأن يدفع "الفرماوى" لهما ألف جنيه تعويضًا عن جريمته، وأن يعالجه ويتكفل بأكله وشربه فى منزله ثلاثة أشهر.

وافق أبواه على كلام الكبار لأن تكاليف علاجه تتجاوز مقدرتهما، وأخذا المبلغ غير مصدقين وجود كل هذه الوريقات النقدية فى حوزتهما.

بعد انتصاف الليل حاول "توبة" أخذ المبلغ من صدر "لواحظ" التى رفضت وعضته وصرخت فى وجهه ليتركها بحالها، واتفقا فى النهاية بعد مفاوضات وملاسنات على اقتسامه.

تفرغ أبوه للتدخين والجلوس طوال النهار فى الموقف مفتخرًا بوريقاته، أكل فى المطعم الملاصق للسوق ونسى حياته القديمة، وعندما أنهى صرف ما فى جيبه سرق باقى المبلغ من أمه التى مرضت بسبب زياراته المتكررة لـ "ستهم" الخضرية.

تغيرت روح "لواحظ" ومرضت، وتركت شعرها مفرودًا كمجنونة، وافتعلت المشاجرات مع زبائنها، وبطحت "هنية" وأبناءها بالطوب، واضطر الأهالى لشراء الخضار من غريمتها "ستهم" التى تفتح دكانها فى الحارة الملاصقة لحارتها.

ماتت طيورها التى كانت تملأ فرشتها بالبهجة، ولم تتبق لها إلا الكلبة العجوز بعد موت باقى أبنائها فى الشهر التالى لرحيل ابنها، وحل الحزن على حجرتها التى تحولت إلى خرابة.

أهملت فرشتها وحمامها، وأضحت أعصابها كالحريق الملتهب على الدوام، تصرخ وتهذى فى وجوه الجميع، كأن بداخلها نارًا مشتعلة، ولم تداوها إلا "أنيسة" التى خففت عنها رحيل ولدها وأفعال زوجها.

ظهر العجز عليها ، وبدأت فى صراعات لا تنتهى مع زوجها حول مربط الحمار، ورفع روثه، ونقل الخضار العطن إلى المعتق، ولم تنته المشاجرات بينهما حتى بتدخل الجيران وأبناء الخير.

نسى أبوه حماره الجديد، ولم يعالجه من الجرب الذى لحق بجسمه، وغارت عين المخصى، وارتخت أذناه، وأضحت عظامه واضحة للعيان، كأنه هيكل أو تمثال لظل حمار كان يحلم بالخصوبة.

" **فقد** "

(١)

يخرج "الفرماوى" كل يوم مشغولاً بقص الصاج واستعداله، بينما تسرح زوجته فى السوق لتشترى الخضار، وتعود إلى دكانه تؤنس وحدته، ثم يعودان آخر النهار سعيدين برزقهما، تاركين "زبلة" مع ابنتهما التى طالبها بالتفرغ لخدمته.

شعر الحداد أن وجوده ملأ حياتهم بهجة، فحينما ينادى عليه ليتناول عشاءه معهم، ينظر فى عينه برضا فيزول التعب الثقيل، وينام آخر الليل فى حضن زوجته كطائر مسكون بالحب.

يجلس "زبلة" طوال النهار بحجرته، يلاغى العصافير التى تغرد على شباكه، ويحكى لـ "محاسن" مآثر العجلاتى التى جعلت من الحارة واحةً للمحبة.

افتتنت البنت بـ "موسى" الراحل، وداعبت كل يوم على سماع نوادره وتعاويذه، ولم يشغلهما عن بعضهما إلا زيارات "حربى" صاحبه الذى يشتكى من مراوغات زوجة خاله الشبقة التى جعلته ينام كالعبد كل ليلة فوق جسدها ملبيًا رغباتها.

يزجره "زبلة" ويطالبه بالابتعاد عنها، لكن "حربى" المسكون بحبها يرفض لأن مرزقه الوحيد فى يد خاله الذى يثق به ويعطيه مفتاح البيت والزريبة التى يذبح فيها عجوله.

حين تدخل "محاسن" عليهما يخرج صاحبه ويتركه يجدف فى بحر سعادتها، فتداوى آلامه، وتطهر جرحه، وتتجاهل نظرة عيونه بحياء مفطور، وحين تشعر ببراءته المتسللة إلى أعماقها تسلم نفسها لنظراته فتتحول شفقتها إلى حب خالص.

تنتهز خروج أبويها من المنزل كل يوم لتجرى إلى حجرته، توقظه وتدفئ قلبه المحروم، وتذوب فى الأثير الذى تضخه هالته، وتتلاشى فى نبضاته.

تخرجه من حجرته إلى باحة المنزل الواسعة، وتترك أحبال وداده تتشابك بأعماقها على صوت اليمام الذى يملأ الشبابيك، ولم تشعر بعجزه الذى تلاشى أمام نور عينه الوحيدة.

أضحى "زبلة" مغرمًا بهالتها، ولم يعد يتمكن من النوم فى لياليه الطويلة إلا بشم رائحتها ورؤية بياض عينيها الصافى.

وفى أحد الأيام طلب من "الفرماوى" مبلغًا صغيرًا ليساعد أمه المريضة، لم يتوانَ الرجل لشعوره بأنه سبب رزقه الذى زاد لأضعافه.

يشترى كل أسبوعٍ السكر والزيت والأرز ويطلب من ابنته توصيلها إلى أمه، فيسير "زبلة" إلى جوارها مسحورًا بهالتها حتى تضع حمولتها أمام فرشة "لواحظ" التى ينادى عليها ولا ترد، فيهمُّ بدخول حجرتها، لكنَّ أباه يخرج مدعيًا هروبها بالمبلغ الذى أخذه من والد محبوبته.

ينظر الرجل إلى "محاسن" فى غضب، ويعايره بعرجه، ويسبه، ويمسك بخناقه، ويتهمه بقسوة قلبه، يزيح الشاش عن جرحه، فينزف ويئن، ويعود الصبى مكدورًا إلى منامته.

وفى الليل تحيطه أسراب العصافير وتغرد فوق سريره، تحمله وتطير بعيدًا عن الحى، ليشاهد أمه على شاطئ النيل تفتح فرشة جديدة وتجلس وسط خضارها مبتهجة.

يناديها، فتلبى طلبه، وتجرى إلى حضنه، تقبله، وتطمئنه على حالها، وتعود إلى فرشتها ممتنة لرؤية الصبى الذى تسر العيون لرؤيته.

(٢)

عندما طلعت شمس اليوم الأخير من الشهر الثالث الذى تكفل فيه "الفرماوى" بإعالته، طالبته "محاسن" بمساعدتها على تنظيف حجرة أمها، فهمَّ كالمسروع داخلا وراءها الحجرة، تشمم رائحة جسد العايقة دون إرادته، وتراءت صورها العارية أمامه على الجدران.

تداخلت مشاعره وأهالت مخزن أعماقه المخبوء، وشعر بدفقات الهواء تتدفق إلى نبضه، وتراءت له الحجرة باحة واسعة كبيرة محاطة بالأشجار، سابحة وسط السكون ومملوءة ببنات نضرات، يتحسسن أعضاءه بضراوة وعشق.

انتفض جسده، ونظر إلى الصبية ذائبًا فى براءة عيونها، فارتمت فى صدره دون إرادتها، ولم يحسا بأنفسهما إلا مع دخول "سنية" التى اضطرت للموافقة على زواجه من ابنتها درءًا للفضيحة، ورتبت حضور أبويه مراسم الفرح دون إشعارهما بالجرسة.

قبلت أمه الزيجة لاقتراح "الفرماوى" تجهيز إحدى حجرات منزله لابنها، واندهشت من كثرة الالتزامات التى ألقاها الرجل على نفسه، لكنها صدقت حدسها بأن داخل ابنها المرزوق كنزًا، هو السبب فى طمع عائلة العايقة وقبولها مصاهرته.

ولولا رشوة والد العروسة لها بجوال أرز وكرتونة زيت، ما كانت وافقت على ترك ابنها مصدر سعادتها فى حضن امرأة أخرى.

حين انتهت مراسم الفرح وهمت بتركه انفطر قلبها، وانهمرت دموعها، فأخذها بحضنه، وطمأنها على حسن اختياره، لكن "توبة" زجرها كى تتوقف عن النحيب، وسحبها وراءه دون توديع وحيدها.

ورغم ذلك لم تسلم العايقة من ملاسنات "سكسكة" التى أوقفتها وسط الزفة أمام "ستهم" الخضرية و"زوجة عوف"، ودرَّعت لها كاشفة أسرارها وتاريخها، ولم تتمكن النساء من إيقاف لسانها السليط حتى اقترب "حنفى " البقال منهن وضحك بتشفٍّ.

أخذ "سكسكة" بحضنه مداعبًا لحيته الطويلة، وسحبها إلى دكانه، فنظرت "زوجة عوف" إلى الرجل البصباص وبصقت على الأرض بغضب، وسارت كالتائهة دون وداع أم العروسة.

(٣)

خلال أيام أضحى "زبلة" صنايعى فى محل الحداد، يمسك القدوم بيده الوحيدة، ويدق على الحديد، يتنيه ويستعدله، ويلاغى النساء الراغبات فى صناعة الحلل والطشوت.

يرفع أحمال الصاج من فوق العربات، ويرصها على الأرفف التى ينظفها كأنها مخزن مشاعره، ويقف مفتخرًا بقوته وسط الشارع مرحبًا بدخول زبائنه المحل.

وأدت الأعمال البدنية إلى تقوية عضلاته، وزيادة طاقته على الحب والعمل، ولم يشعر مرةً واحدة بعجز قدمه أو يده المقطوعة.

يغلق المحل آخر النهار، ويهرول إلى حجرته لتحميه "محاسن"، ويأكل طعامها الهانئ، ويداعب حضنها، ويعاقرها طوال الليل، كأنه مخاوى جنون العشق.

بعد مرور شهر حملت زوجته، وشكرت العايقة السماء المفتوحة التى وهبتهم هذا الفتى الذى أدخل على حياتهم الرزق والسعادة.

عاش شهورًا خادمًا لزوجته التى وهبته براءة روحها، ممتنا للقدر الذى جعل أباها فى لحظة غضب يقطع يده التى كانت سببًا فى سعادته.

لم ينس أمه ودأب على شراء الأرز والسكر والزيت، وإرساله مع "أنيسة" لحجرتها التى حرمه أبوه من دخولها.

تقابله بائعة اللب كل أسبوع، وتأخذ منه أكياس البقالة وتطمئنه على "لواحظ" التى تخفى عن أبيه مصدر هذا الخير حتى لا يسود عيشتها.

يقابل زوجة الكهربائى ويداوى حزنها، ويطمئنها على "حربى" الذى تخاف عليه من دم الجزارة، وتتمنى أن يغير مهنته وتطالبه بتشغيله بمحل "الفرماوى"، فيطبطب على ظهرها ويمسح دموعها مؤكدًا إقناعه برغبتها.

يترك المرأة ويعود إلى محله، متجاهلاً سباب "سكسكة" التى تصاحب حرامى الحمير الذى تحول إلى حرامى غسيل بسبب العجز الذى أصاب ظهره، لم يرد أبدًا على بذاءتها، ويضحك مع

الجيران مكررًا قول العجلاتى: "إنها تسب شخصًا آخر لا أعرفه، لأن أمى ليست بهذه الأوصاف".

لكن "زخارى" الذى لم ينس جرحه، وبعد فشل محاولات "سكسكة" فى المشاجرة معه، يقرر الانتقام ، وفى ليلة فاصلة لا ينساها اتفق مع عصابته التى قابلته فى غبش الليل ودخلوا الحارة أثناء نوم الجميع ليسرقوا دكان الحداد.

حينما شعر "زبلة" بهرولتهم، انتفض من حضن زوجته وتوجه إلى الدكان، عندما رأى اللصوص هالته جروا من أمامه حتى ناصية الحارة، لكن حرامى الحمير لم يهرب وتصلب أمامه وسط ذهول بعض الجيران الذين فتحوا نوافذهم لمعرفة ما ستئول إليه العركة.

نظر زخارى فى عينه الباقية متذكرًا الموت الغارق فى النهر، فبادله الفتى النظر ولم يتحدث، فخر الرجل أمامه مصروعًا، معلنًا أن هذه هى المرة الأخيرة التى يسرق فيها أحدًا.

تركه وعاد بذراعه الوحيدة إلى المحل وسط انبهار الجيران وذهول "الفرماوى" الذى هرول داخل دكانه خائفًا على ضياع شقى العمر، آمن الرجل على بضاعته وعدده، وأخذ زوج ابنته فى حضنه، وسجد على الأرض، قائلًا: "حقك علىَّ يا زبلة، سامحنى يا بنى".

تجاهل اعتذاره، وذهب إلى حجرته، وأخفى "محاسن" بين أحضانه، وضاجعها عدة مرات، ولم يهتم أن جنينها قد أوشك على النزول.

(٤)

أثناء انشغاله أحد الأيام بالمحل فى تقطيع الصاج، علم بخبر ولادتها، فعاد كالمصروع إلى حجرتها وسمع الصوت: "واء .. واء"، وشعر بنفسه كقبطان سفينة تبحر فى نهر المحبة، ارتمى على الأرض يشكرها لمنِّها عليه بالذرية التى ستملأ الحارة بالعمار.

ملأ عينه من ابنتيه التوأمتين؛ وتلمس براءتهما، وبكى من فرط سعادته، وأضحى كمجذوب وسط النسوة اللائى ملأن الحجرة.

حين حل الليل خافت العايقة من فحولته، وأجبرته على النوم أمام الحجرة حتى لا يعاقر ابنتها النفسة.

ورغم الحكم عليه بالنوم وحيدًا خارج الغرفة، فإنه كان يصحو طوال الليل، ويدخل على محبوبته كل ساعة فى ظل مراقبة أمها لجموحه، يحتضنها كجذر الأرض، ويرفع ابنتها "نور" بيده الواحدة، ويقبل "سعدة" فى خدها، ويعود إلى منامته مبهوجًا يقظًا، كأنه حارسهن الذى أرسلته السماء لحمايه براءتهن.

يمشى فى الصباح للمحل ممتنًا لطوب الأرض، يعطف على المارة بكلمة طيبة، ويلاغى الزبائن، ويبدع أفضل الطشوت والأوانى غير مشغول بالنقدية التى يلقونها فى جيب نسيبه.

وأدى تأخره كل ليلة فى المحل إلى توطيد علاقته بالجزمجية التى تطالبه دائمًا بمساعدتها على تنظيف محلها وترتيبه، لم يتأخر عليها أبدًا، ولم يرفض "الفرماوى" طلبها ليتحاشى سخريتها اللاذعة.

وفى إحدى الليالى وأثناء رفعه البنك الذى تجلس خلفه، رغبت فى ملامسة جسده، فأدار وجهه إليها، فارتبكت الجزمجية وكادت تقع من طولها، سندها واستكمل نظرته داخل روحها كأنه يعيد ترتيب مخزن مشاعرها المخبوء بروحها، انطلق فى أركانه ماسكًا مكياله بيده الوحيدة ليزن سلامها مع رغبتها، وحين يتأكد من زيادة وزن السلام يهرول إلى باقى الأرفف ليطهرها من التعلق ويملؤها بالمحبة.

شعرت المرأة بدفقات قلبها تتزايد كأنها ستفارق الحياة، لفت ذراعها حول جسده بقوة، وشعرت بنفسها كفراشة تحلق وسط الزهور وتشرب من نهر القبول.

استردت وعيها مبهورة من سكون روحها، سحبت نفسها من بين أحضانه، وجلست على الكرسى وسألته: "أنت مين وعملت كدا إزاى؟"، لم يجب وتركها وذهب إلى دكانه صامتًا.

عاد من عمله راضيًا، أطمأن على محبوبته وابنتيه، ونام أمام الحجرة راضيًا بقدره، وفى الليل قابل العجلاتى بأحلامه، لقنه الرجل تعاليمه حول سمو الروح ووحدة الكائنات، ولف بروحه فوق بحور وحدائق وجبال لم يرها بحياته.

وبعد مرور أربعين يومًا عاد إلى منامته وسط ابنتيه وزوجته التى عاشرها برغبة عارمة، كنهر يشق أرضًا كادت تموت من العطش.

يرويها كل ليلة قبل غفوتها، فتنام وتحلم بعصافير الجنة المحيطة بجسدها الطائر، وتصحو مع خروج الشمس لترضع "نور" و"سعدة" اللتين يكشف وجهاهما وابتسامتهما عن قيمة الحياة.

تجهز "محاسن" الفطور، ويتناولون طعامها كأنه الشهد، ويخرجون للمحل ويتركونها مع ابنتيها، فتقوم بهمة لتكنس البيت، وتغسل الأطباق والحلل، وترش الباحة بالورد فى انتظار العائدين.

لم تشعر "سنية" العايقة بكل هذه السعادة فى حياتها، والتى جعلت الحداد كل ليلة يمتلئ فحولة، ويضاجعها كفتاة صغيرة، وفى غضون شهور قليلة امتلأت نضارة، وأضحت أجمل نساء الحارة.

(٥)

تيقظ فى إحدى الليالى كمجذوب تاركًا زوجته، وتوجه إلى فرشة "أنيسة" وسط الحارة ليطمئن على أمه التى رآها بأحلامه تستغيث من الهجر والذل، اندهشت بائعة اللب من صوته الباكى وطمأنته قائلة: "زى القردة ميهمكش".

لمحته "هنية" من بعيد، فجرت إليه وألقت بنفسها داخل حضنه، ونامت فوقه تمسح وجهه، رفعها برفق وحدثها عن "سعدة" و"نور" و"محاسن" والحياة الهانئة التى يحياها.

نظر "حنفى" البقال من دكانه مداعبًا لحيته، وسخر من الزمن الذى يعطى للعاجز كل هذه السعادة، تجاهله "زبلة" وودع الكلبة، وعاد إلى حجرة زوجته يئن فى صمت.

فى الليل جاءه العجلاتى وسحبه من يده خارجًا من الحارة، وركب بجواره أحد الباصات، وذهب إلى المدافن، وهناك شاهد أمه وأباه ينامان وسط آلاف البشر الملفوفين فى قماش أبيض.

هطلت السماء من فوقهما بالأمطار فتحولت الجثث من حولهما إلى غبار، ولولا أن العجلاتى أزاحه بيديه تحت أحد الأسقف لتحول مثلهم إلى تراب.

حين انتهى المطر من سقوطه، حمله العجلاتى على جناحيه وأعاده إلى حضن امرأته، وطالبه بألا يتدخل فى مشيئة السماء التى كتبت على جبين كل كائن حجم رزقه ويوم ميلاده ومماته، ولا يمكن لأحد تغيير مصيره.

فى الصباح تناول إفطاره فى صمت وخرج مع الحداد إلى المحل، واندهش الرجل من وقوف "زخارى" و"سكسكة" أمامه وسط الحارة متأهبين للشر، خاف عليه من جموحهما فطيب خاطرهما كى يمر من بينهما فى سلام.

تجاهلاه وأحاطا الصبى برهبة، وبكت "سكسكة" و"زخارى" بجنون على صدره، معلنين توبتهما بعد حلمهما ليلة الأمس بالعجلاتى الذى طهر أرواحهما من البذاءة والخسة، وطالبهما بتحويل دكانه إلى مطعم شريطة أن يوافق "زبلة" ويسامحهما على أفعالهما.

ابتهج الحداد معلنًا الخبر بالحارة، وأصر على أن تكون ليلة الافتتاح على حسابه، وهلل الجيران لتحول بذيئة اللسان وحرامى الغسيل إلى مواطنين يكدان ويعملان مثلهم طوال النهار كالحمير، ويناماان آخر الليل سعيدين بسقف حجرتهما التى تستر عورتهما.

(٦)

فى نهاية الاحتفال بافتتاح مطعم الأمل الذى تملكه "سكسكة"، اقتربت "زوجة عوف" من "زبلة"، وحدثته فى همس طالبة لقاءه.

أخذها وذهب إلى الدكان، وجلست المرأة أمامه تحكى عن عقر زوجها واضطرارها إلى معاشرة البقال لسابقة زواجه وإنجاب امرأته خمسَ بنات، زوجهن كلهن خارج الحارة بعد موت زوجته محروقة.

بكت قائلة: "بعد معاشرته عامين متواصلين اكتشفت أنه هو الآخر عاقر، فقررت مقاطعته، فهدد بفضحى، مدعيًا أن صبيه رآنا أكثر من مرة مختليين ببعضنا فى شقته".

نهنهت بحرقة واستكملت: "أنيسة هى التى أرسلتنى لأنها تعلم أنك ستحل مشكلتى دون علم أحد".

طبطب عليها وودعها، وذهب إلى دكان "حنفى" ليعيد له عقله، لكن البقال قهقه بصوت عالٍ، ولم يرضخ لتوسلاته بالابتعاد عن المرأة، ولم يهتم بنظراته الثاقبة التى حاولت اختراق مخزن مشاعره المخبوء فى أعماقه، وتمادى فى سبه وهدده بخراب بيته لأن المرأة التى يدعى شرفها تعاشر نصف رجال الحى، ويكفى أن تعرف العايقة بما يجرى كى تطرده من النعيم.

وأمام إصرار البقال على موقفه وتوبيخه ونعته بأقبح الصفات، اضطر للعودة إلى حجرته مكتئبًا من فشل تعاويذ العجلاتى فى تطهير الشر بأعماق الرجل وإرجاعه إلى طريق الخير.

لم يرد على زوجته ولم يداعب ابنتيه، وحاول الدخول فى النوم آملاً فى حضور مرشده، تقلب على السرير أكثر من ساعتين دون أن تغفل عينه، واضطرت زوجته لأخذ ابنتيها والنوم على الأرض خوفًا من تأوهاته وأنينه.

وقبل حلول النهار بساعة جاءه العجلاتى حزينًا، ونبه عليه بألا يطلب حضوره مرة أخرى، قائلاً: "يكفيك ما نلته من عطايا، اعتمد على نفسك وطهر روحك"، فسأله "زبلة" باكيًا: "كيف فشلت فى دخول مخزن البقال المخبوء بأعماقه، وتطهير أرففه من الكُره وملئها بأثير المحبة؟"

ضحك مرشده قائلاً فى وداعِهِ: "لأنك نظرت إلى المرأة برغبة، ولأن المحتال وضع أقفالا لا يمكن فتحها إلا بالطرق القوى بمرزبة الإيمان على قلبه الكافر بالمحبة".

انتفض من نومه على صراخ "سعدة"، واستجاب لنداء زوجته ليفطر مع والدها ويتوكلا على دكانهما لينالا رزقهما الوفير.

(٧)

طوال النهار كانت صورة "زوجة عوف" تباغته عارية فيطردها، ويعود للدق بقوة على الحديد محاولاً استدعاء العجلاتى، لكنه شعر بأن روحه جفت كأرض بور تصرخ من العطش.

ولأول مرة منذ عمله مع الحداد غالبه النوم أثناء النهار، وتخيل سقوطه من فوق جبل عالٍ إلى فراغ ليس له آخر، وبحث رغم سقوطه عن أى أثر للكائنات من تحته فلم يجد، لكنه سمع صوت زوجته ينادى عليه من أعلى جبل مجاور، نظر إليها بشفقة وحاول تفادى سقوطه على الصخور التى مزقت جسده وحولته إلى قطع لحم مهروسة فى دمه، ورغم ذلك كان يصرخ وينادى عليها حتى لا تفقد الأمل فى عودته آخر النهار مبتهجًا كعادته.

زجرته الجزمجية لتعيده من غفوته، احتضنته بود، وشكرته على روحه الطيبة وطمأنته على نفسها كأخت، وأرسل لها "زخارى" سندوتشات الفول والبطاطس المهروسة، ونادت "سكسكة" عليه من بعيد قائلة: "الحساب وصل يا مولانا".

ورغم مداعبات المارة الآملين فى سماع أسمائهم من لسانه الساحر، فإن صدره كان يضيق ويشعر أنه أصم وأبكم، وينظر إلى قدمه العرجة وكتفه المقطوعة بعينه الوحيدة لأول مرة حزينًا، كأنه اكتشف فقدهما فجأة.

تذكر حلمه فجأة، فترك المحل متجهًا إلى حجرته، آملاً فى احتضان امرأته وابنتيه اللائى سيعدن سلامه.

حاول "الفرماوى" استيقافه وإعادته لإنهاء عمله، لم يرد عليه واستكمل طريقه، فهرول الرجل وراءه دون أن يغلق محله حتى وصلا إلى باب المنزل.

نظر بعينيه وسأله محاولاً فهم ما يجرى، تجاهله وتركه وذهب إلى سريره صامتاً، حمل البنتين، ووضعهما على الأرض، ونادى على "محاسن" بصوت خفيض، فتركت أمها تستكمل إعداد الغداء ودخلت عليه ملبية طلبه، فعاشرها برقة ليس لها مثيل.

شعر بالنور يملأ عينها كنهر، وأبحر داخله غير عابئ بالأمواج، ركبت "محاسن" فوق مركبها المحاط بالزهور والمضاء بلمبات تشع براءة وغرقت معه فى الندى، وكلما ضاجعها زاد نور عينها فيبحر أكثر كأنه سيتلاشى داخل أمواجها.

وحين قامت لتسخين المياه كى تحممه، ناداها ليعاشرها مرة أخرى، فتركت طشتها على البوتجاز، وعادت إلى أحضانه، وأبحرت مرة أخرى بجسده داخل نهر عينيها، ونسيت البوتجاز مفتوحًا لتنفجر أنبوبته فى حجرات المنزل وفرشه.

دخل مجذوبًا يبحث بين الرفات عن بقاياهم، لم يهب اللهيب الذى أمسك بتلابيبه، ولوح ببطانية قديمة ربطها فى ذراعه الوحيدة؛ ليزيح أكوام النار من أمامه، ويبحث بقدميه العرجة والسليمة عن جثث أحبائه.

عجز الجيران بكل طشوت المياه التى حملوها عن إخماد الحريق، وفى غضون دقائق خرج من وسط اللهب المشتعل حاملاً بقايا الطفلتين، وضعهما بجوار جثة زوجته، ووضع عليهن البطانية ليطفئ نارهن المشتعلة بجلودهن، لكن أرواحهن البريئة لم تتحمل الدخان الذى ملأ سماء المنزل فغادرت أجسادهن معلنة نهاية رحلتهن.

لم تترك النار إلا شبحه الواقف بذراعه الباقية وعينه الوحيدة وساقه العاجزة وسط النار، مدهوشًا من ضياع كل هذا الحب بين الركام.

تكالب الجيران على جسده المنهوك، ومسحوا السواد عن وجهه، وجلس بجوارهم ساعاتٍ طويلة صامتًا حتى جاء أقارب زوجته، طردوه كالكلب، واستلموا المنزل المحروق ببقايا الجثث.

" أمل "

(١)

عاد إلى منزل والدته وعلم من الجيران أنها ماتت محسورة بعد زواج "توبة" من غريمتها "ستهم"، واضطرارهم إلى دفنها بترب المساكين، متجاهلين إبلاغه لانشغاله بالحريق الذى أكل أسرته.

نظر إلى فرشتها التى تراكم عليها الهاموش والحشرات، ودخل حجرتها باحثًا عن آثارها فوق الترابيزة أو تحت ملاية السرير، لكنه لم يجد إلا الكلبة العجوز النائمة بالركن، والتى تيقظت وزمجرت وتمسحت بعرجته وهوهوت مرحبة بعودته.

ملس على وجهها وبكيا معًا، وخرج إلى الحارة لمقابلة بائعة اللب ليعرف ما جرى فى غيابه، وقبل وصوله إليها سمع صراخا وعويلا، فنظر بحذر تجاه الهدير المتزايد من حوله، وشاهد "حربى" ابن الكهربائى يجرى عاريًا والدماء تغطى وجهه المشقوق.

زجره "حنفى" فى كتفه قائلاً: "صاحبك بيموت، قرب غيته وبص فى وشه، يمكن يهدى ويخف يا مولانا"، وداعب بأصابعه خصلات ذقنه، ونادى على الناظر ليدخلا دكانه ويختفيا فى صمت.

اقتحم "زبلة" الجموع المحيطة بجسد صاحبه، احتضنه، ووضع رأسه الجريح بين كف يده، ونظر فى عينه التى تحولت إلى بقعة مظلمة.

ذكَّره بليالى المولد وسباق الدراجات ولعبة الغميضة والنطة، فاستفاق الشاب مستعيدًا طفولته تاركًا دموعه السوداء تسيل من جفن عينيه.

اخترق بكاءه صوتُ أحد المارة الذى حكى بصوت عالٍ لأمه المكلومة عن عركته مع خاله فى المقهى بحارة المواشى المجاورة لحارتهم.

قال الرجل فى دهشة: "وقف سنقر بسكينته الطويلة أمام الرواد، وقال بغضب: بتركب مراتى بالزريبة، فاكرنى ديوث يا بن النجس، لم يرد حربى على خاله الذى قطع لحمه بسكينته، ولولا قيام الرواد بمنعه بكراسيهم ما تمكن ابنك من الهروب والعودة".

خلع "زبلة" قميصه وغطى جسد صاحبه الدامى وطلب من الجميع الصمت، وامتلأت السماء بطيور كسيحة تتساقط عليهم كأنها قطرات قطران، فصرخ "حربى" كالثور حتى خرجت روحه.

حمل الجمع جسده وأعادوه إلى حجرة الكهربائى الذى أصيب بجلطة أفقدته حواسه وأقعدته طريحًا صامتًا، وغسل الجيران جثة القتيل ورفعوها داخل الخشبة، ورحلوا فى سيارة الميتين إلى المدافن.

جلس "زبلة" بجوار بائعة اللب مدهوشًا من صوت الطيور العمياء التى خطفت روح صاحبه، وهربت وسط صراخ الأهالى وعويلهم، وعاتب نفسه لأنه لم يتمكن من منعها، وإيقاف صراخها وتطهير أعماقها أثناء خطفها روح أحبائه الذين فقدهم دفعة واحدة.

(٢)

أثناء العزاء الذى شيده "زخارى" و"سكسكة" للموتى، اقتربت "زوجة عوف" منه قائلة: "تعبانة يا مولانا، غتتى"، نظر فى عينها ولم يحس بوجودها، وحين تيقنت من عدم اهتمامه، استكملت: "هجيلك بكرة أوضتك، استنانى، متخرجش".

ترك العزاء وسار باتجاه فرشة "ستهم" باحثًا عن أى أمل فى ملاقاة والده، تأمل شعاع القمر المكسور على الأرض، وحاذى عليه حتى وصل إلى حارة الخضرية مشغولاً بصوت الطيور العمياء ومصير الراحلين، محاولاً تفهم أى معنى لرحلة الحياة.

وحين وصل أمام "ستهم"، لم يهتم برائحة الخضار العطن، وسألها بأدب عن والده، فنظرت إلى ساقه العاجزة ويده المقطوعة، وقالت: "أهو مرمى فى الأوضة مش لاقى حاجة يعملها".

نادى عليه بكل رقة، فخرج الأب من حجرتها عميانًا من الدخان، لم يتعرف عليه إلا بعد النظر داخل عينيه التى خلعها يوم ضياع حماره.

وبخه وكاد يقلع عينه الثانية لنسيانه معنى الأبوة، والتنعم وحده فى خير "الفرماوى" ، طارده بأمشته، فهرب من أمامه دون أن يدرى وجهته.

أثناء هرولته كان يصرخ ويعتذر لوالده بسبب انشغاله بابنتيه وزوجته، كان يبكى ليقدم فروض الولاء والطاعة ليغفر لسنده وأمله الباقى بعد رحيل زوجته وابنتيه وأمه، عقوقه.

كان ينتظر أن يواسيه فى رحيل الأحبة، لكن "توبة" لم يسمع أو يرَ، كل ما أحزنه، أن ابنه المرزوق الذى جاء من صلبه، أعطى الهدية التى وهبتها السماء لغير عائلته التى حابت عليه حتى شب وأصبح مطمعًا للنساء.

عاد إلى حجرة أمه مكدورًا، ونام متوقعًا حضور العجلاتى ليغيته، لكنه شاهد نفسه بالحلم مقسومًا إلى نصفين، نصفه العاجز يقف على ضفة نهر مملوء بالهيش، ونصفه السليم يقف على الضفة الأخرى النظيفة، وينادى بنصف لسانه كى يعود نصفه العاجز إليه.

لم يكن يدرى أيهما هو "زبلة" الحقيقى، لكنه شاهد نصفه العاجز يبادر بهمة، ويلقى بنفسه فى المياه راغبًا فى الوصول إلى الضفة الأخرى ليلتحم بنصفه السليم ويكمله.

عافر بنصف جسده، وضرب المياه بقدمه العرجاء، وكاد يغرق عدة مرات لولا قيام أحد المراكبية بإلقاء المجداف بجواره، ليمسكه بنصف أسنانه كأنه طوق النجاة.

نظر الرجل بغرابة إلى العاجز المقاوم وسأله: "كيف تحاول السباحة والنجاة يا نصف الإنسان؟".

فأشار إلى الضفة الأخرى وقال: "أريد استكمال نصفى الآخر، أرجوك ساعدنى".

رفعه الرجل فوق المركب، ومسح بيديه نصف وجهه ونصف رأسه، وضرب المجداف فى المياه حتى وصل إلى الشاطئ، نزل نصف الزبلة العاجز، ونظر إلى جوانب الضفة كلها بعينه الوحيدة فلم يجد أى أثر لنصفه السليم.

أدت دقات باب الحجرة المتسارعة إلى يقظته، وتفاجأ بـ "زوجة عوف" تقف بجوار سريره وتمسح بيديها رأسه المملوء بالعرق وتنادى: "مولانا مولانا"، خلعت ملابسها فى خفة، وتسحبت لتنام بجواره وهى تردد: "داونى يا خويا، خفف حملى يابا".

أزاح البطانية برفق، ونزل من فوق السرير، ومسح العرق المتساقط من جبينه، مستعيدًا روح المراكبى والقوة التى ملأته وسط النهر.

نظر إلى عين المرأة المستسلمة لهالته بود، وتحسس جبينها، وشعر بدخوله مخزن مشاعرها المخبوء بأعماقها، طهَّره بتعاويذه، وملأه بالمودة ونصحها بالعودة إلى حياتها آمنةً.

قامت المرأة وارتدت ملابسها، ونظرت داخل عيونه وغرغرت بالدموع، وخرجت فى صمت مملوء بالسلام كأنها كائن آخر لا تعرفه.

(٣)

غادر الحجرة دون أن يدرى واجهته، وقادته أقدامه إلى الكوبرى الذى ينام تحته صبية وبنات لا يعرفون أهاليهم، وبسبب التعب الذى حل على جسده نام وسط الكراتين غير عابئ برائحة القمامة.

حين تيقظ فى الصباح وجد إحدى الفتيات تجلس إلى جواره، ذكرته بنفسها سعيدة بعودته، وقالت: "أيوه يا أعرج، أنا شوق اللى لقيتك وأنت عيل، وأبوك خطفك منى".

لم يستغرق ودهما الموصول دقائق لاستعادة ذكرياته والاتفاق على مشاركتها فى بيع المناديل والأقلام على النواصى، فتحت بؤجتها وأخرجت أرغفتها ليأكل مستعيدًا طعم الشهد الذى كانت تتفنن فى صنعه.

تمدد بجوارها وهى تحكى عن نظراته الثاقبة التى منعت "سيد الزبال" من معاقرتها، واعتقاده بوجود أهل وعزوة يمكنهم الدفاع عنها إذا حاول اغتصابها.

أثناء حكاياتها الكثيرة التى لا يتذكر أغلبها، دخل فى نوم عميق، وشاهد نفسه يمشى على جسر خشبى يربط بين جبلين مرتفعين وتحيط بهما مياه زرقاء ساكنة.

كان يمشى بحذر على أحد جوانبه حتى لا يقع من بين فتحاته وتتفتت جثته وسط الصخور التى تبرز من بين المياه، ورغم ذلك كلما نقل قدميه أو نظر بعينه إلى السماء اهتزت أرضية الجسر المصنوع من جذوع النخيل.

وحين وصل إلى منتصفه، خط فى حذر وبصمت حتى يتحاشى الاهتزازات المتزايدة، ورغم ذلك انهار الجسر لنصفين وتدلت أجزاؤه على جانبى الجبل الصامت وترنحت كأنها ذبيحة معلقة على باب جزار.

وشاهد نفسه يتساقط كنقاط المطر نحو مياه البحر البعيدة، وأثناء سقوطه تدلى له حبل من بقايا الجسر، فأمسك به وعاود الصعود من جديد.

عندما اقترب من أعلى الجبل وتيقن من النجاة، ذابت أطراف الحبل بين أصابعه، فسقطت جثته مرة أخرى، فعلم أنه سيموت وحيداً غارقًا.

أثناء سقوطه غفا وحلم بفتاة تسبح من تحته بالمياه، ونادت عليه ليغيثها من التماسيح المحيطة بجسدها، فاستعاد عزيمته وقوته ونظر إلى الوحوش مطهرًا مشاعرها، فابتعدت عنها وهللت الفتاة لنجاتها، وحين ارتطم جسده بالمياه البعيدة بحث عن وجه الفتاة المنير التى أنقذها لكنه لم يعثر لها على أثر.

تيقظ على صراخ الكلاب والقطط المتجمعة حوله، وتلمس بهجة "شوق" المحيطة بجسده، فشعر بأنها فتاة الحلم، ضحكت فى وجهه الحائر، وسلمته الأمشاط والأقلام والمناديل، وطلبت منه الدوران فى الشوارع لبيعها، واللقاء آخر اليوم تحت الكوبرى.

(٤)

خلال أيام قليلة وبسبب لسانه الطيب أتقن "زبلة" عمله، واتفق مع تاجر الجملة "سيد الزبال" على تسلم رزم الأمشاط والأقلام والمناديل، دخل مخزنه وهو يضع يده الباقية على العرجة، قائلًا بثقة: "سلمنى أى بضاعة يا شيخ سيد وسوف أعيدها لك نقودًا فى أقل من يوم".

ولولا وجود "شوق" وعلاقتها الطيبة بالتاجر لطرده، نظر بسخرية إلى عينه الضائعة، وقال: "اللى تخاف منه ميجيش أحسن منه، على البركة يا أعرج".

لم ينس الشيخ بياض عينه الذى أرعبه ليلة محاولته اغتصاب "شوق"، وسأله بسخرية: " قلت لأمك إنك هتشتغل معانا، ولا هتبعت أبوك يدور عليك يا واد".

لم يلتفت إليه، ورد قائلاً: " أمى ماتت، والأرزاق على الله، متخفش منى يا زبال"، فرد الشيخ بصوت ودود: "البقاء لله يا صحبى".

خرج محمَّلاً ببؤج البضاعة، دار ساعاتٍ وساعاتٍ دون أن ينام حتى باع كل ما أخذه، وعاد للزبال، سلمه نقوده، واشترى بمكسبه بضاعة جديدة، وباعها فى اليوم التالى ودارت الدورة، وأصبح يمتلك فى عدة أسابيع رزم العشرات من الجنيهات.

لم يهب المخبرين الذين تحاشوا ظهوره، معتقدين أنه يخوى الجنون الزرق، وعطف عليه المارة واشتروا بكل ما فى جيوبهم بضاعته، معتقدين أن شفقتهم عليه ستنجيهم من غضب السماء.

فتح الله عليه دون أن يدرى برزق وفير، وشارك "شوق" فى مرزقه مقسمًا معها الشوارع والنواصى، واكتسب خبرة أذهلت زملاءه فى المهنة، وسموه "الأعرج ملك السوق".

وفى ليلة بديعة توسط قمرها السماء، نظر إلى شوق مطهرًا مخزن أعماقها، تقرب منها طالبًا الزواج، تفاجأت الصبية ، ونظرت إلى الكراتين المحيطة بهما حائرة، فعاهدها على الإخلاص والتفانى فى إسعادها، فوافقت متمنية النوم تحت سقف أى حجرة تحميها من طمع الكلاب.

فى الليلة التالية زفهما الباعة فى أحد التكاتك حتى حجرة أمه التى نظفتها بائعة اللب فى محاولة لغفران غفوتها يوم ضياعه.

وعادت البهجة مرةً أخرى إلى "هنية" العجوز، لمعرفتها الوطيدة بابنها الطبيب الذى رضع من ثديها مع كلابها الذين ماتوا فى الوباء.

(٥)

سعدت "شوق" بحجرة أمه الآمنة وسريرها، واستمتعت بجسده الذى مده الله بطاقة مهولة فى الحب، ولم يشعر بأى تعب من اللف على النواصى خلال النهار لبيع المناديل والعطور والساعات، وإشباع رغبات محبوبته طوال الليل.

لم تسلم زوجته من نظرات "حنفى" البقال وفضوله، يتندر على عجز زوجها، ويسألها عن أهلها وبلدها، وكيفية إشباع الأعرج لجموحها؟

ينظر إلى صدرها النافر ونضارتها ويدعك لحيته بيديه الاثنتين، ويبلع ريقه كأنه سيموت من العطش، فتتجاهله ساخرة من شيبته، فيزداد جنونه كلما أيعنت فى ممانعته.

توطدت علاقتها بـ "سكسكة" و"زخارى" وتناولت معهما الطعام فى غيبته، وأصبحت عروسة الحارة التى يتغنى الجميع بجمالها.

لم تهتم بحكايات الجيران عن معجزاته أو احتراق ابنتيه وزوجته وصاحبه وموت أمه فى ليلة واحدة، واعتبرته هدية السماء التى أرسلتها فى ساعة رضا ليرعاها ويحميها.

بعد أسابيع قليلة طلبت منه النزول إلى النواصى لمساعدته على المعايش، فرفض عارضًا عليها الوقوف بفرشة والدته حتى تتحاشى مطاردات المخبرين، ووافقت الفتاة على أمل أن يشغلها عملها الجديد عن الانتظار وحيدة طوال النهار.

قام فى الفجر وذهب إلى السوق، وقابل العربجية الذين رحبوا بحضوره، وضمنوه عند التجار ليحمل عربة كارو مليئة بأقفاص الخضار ويعود إلى الفرشة مملوءًا بالقوة، رتب الخضار بيده الباقية، وعلم زوجته أحجام الموازين، وعرفها على الأسعار، ومعاملة الزبائن لكسب ودهم وحبهم.

تفرغ عدة أيام لاستعادة الزبائن الذين خطفتهم "ستهم"، وعادوا مدهوشين من قدرة العاجز على مواجهة كل هذه المصائب بكل هذا العزم.

ساعدته حكايات الجزمجية و"سكسكة" و"أنيسة" على استعادة صوته الطيب وهالته المبهجة، فعاد يغنى للخضار وينادى على النساء الغاديات بأسماء الخضر، كبلبل يبحث عن بهجة أرواحهن.

ورغم امتلاء حياة "شوق" بحكايات جيرانها واندماجها فى أحداث الحارة، لكنها كانت تشعر بالوحدة خاصة بعد رحيل زوجها كل صباح.

شعرت بحنين إلى رائحة الشوارع وبراح السماء الذى كان يغطيها طوال الليل والنهار، وقامت متفاجئة بنفسها، لبست ملابسها وسارت فى اتجاه الشارع، وحين وصلت عند باب الحارة تصلبت قدماها، وعادت مغدورة كأنها تخاف من هواء الشارع الذى نامت بأحضانه سنوات طويلة.

وحين عاد زوجها آخر الليل زال ضجرها لحركته السريعة، رتب حجرتها ونظف الحمام، وغسل أطباقها فى حوض الطلمبة، ونشر غسيلها على الحبال الممدودة أمام حجرته، وعاد ليضاجعها كفراشة وسط الجنة.

يتركها مبتهجًا فى الصباح، ويدور على النواصى المملوءة بالقوادين، يخترق هديرهم ويغنى لمبيعاته: "مناديل للحب، أمشاط للجمال، كريمات للنضارة، ساعات للزمن"، يدور ويغنى على النواصى التى يتخيل المارة الواقفين عليها حدائق وأنهار محبة.

ويعود لحجرته سعيدًا برزقه، ينقض الخضار ويرصه، ويغطى الفرشة، ويعد العشاء، ويأكل مع وليفته، ويضاجعها، كأن جمال العالم خلق له وحده.

(٦)

استعادت "هنية" العجوز صحتها ونضارتها، وحملت من كلب ضال، وانتفخ بطنها، وأضحت كالإربة المقطوعة أثناء سيرها فى اتجاهه هازَّةً ذيلها وعاوية كالذئاب.

أمل فى حمل زوجته لتهبه الذرية التى سيحكى لها أسرار "لواحظ" و"محاسن" و"سنية" وكل النساء اللائى عرفهن بحياته.

لكن "شوق" لم تهتم بأحلامه، وانشغلت بتجارتها المزدهرة، ودخلها المتزايد، حلمت بتكوين ثروة، وشراء شقة واسعة ومحل كبير للخضر تجلس فيه على الكيس لتجمع الدخل المتراكم كل يوم.

ورغم انشغاله طوال الليل والنهار، لكنه لم ينس والد صديقه الذى مات مذبوحًا فى يوم شر، وأضحت زيارته لحجرة الكهربائى عادة يومية، يدخل عليه بأكياس الخضار، ويطبطب على جبينه، ويفرد قدميه ويثنيها، ويرفع يديه إلى السماء ويعيدها إلى جنبه، ويداعب بطن قدميه وتحت إبطيه كأنه طفله المدلل.

يغسل جوزته، ويرص حجر المعسل، وينفخ الدخان فى وجهه، ويحكى عن البحار والحدائق والطيور التى تأتيه بأحلامه، راغبًا فى فتح مخزن مشاعره المصمت والمخبوء بأعماقه ليداوى جرح الفقد الذى جمد حواسه.

يأخذه بحضنه، فيبكى "عطية" بحرقة، أملاً فى تجاوز محنته وفك ثقل لسانه، وحينما خرج من حجرته بعد وداعه أحد الأيام، سمعت زوجة الكهربائى صوته ينادى: "اسندونى"، فعاد "زبلة" مبتهجًا إلى جواره، وجلس طوال الليل يحكى عن هالة المراكبى الذى ساعده ليتجاوز مياه النهر بنصفه العاجز.

فى هذه الليلة كان "سيد الزبال" يزور فرشة "شوق" ليتسلم ثمن البضاعة من زوجها، اندهش من نجاحها فى حياتها الجديدة، وودعها على أمل زيارتها فى مخزنه.

لم تنتظر "شوق" عودة زوجها ودخلت حجرتها لتنام، وفى الليل صحت مقبوضة الروح، كأن حلمها بالثراء حمل ثقيل، ألقته من فوق ظهرها ونامت بعمق غير شاعرة برحيله فى الصباح، تجاهلت أصوات الزبائن التى نادت عليها، واستغرقت فى النوم بكسل لم تعرفه طوال حياتها.

اشتاقت دون إرادتها إلى حياتها تحت الكبارى، حياة دون أحلام أو رغبات، والاكتفاء برزق "يوم بيوم"، وأضحى سقف حجرتها يضايقها ويأتى لها بالكوابيس، لدرجة أنها كانت تترك زوجها ممددًا على السرير، وتنام أمام الحجرة فى الطلق، لتشعر بالحرية التى تربت بين أحضانها.

خلال هذه الأيام كان "زبلة" يصحو من النوم مدهوشًا من حالتها الجديدة، يسحب البطانية ويغطى جسدها العارى أمام الحجرة، ويعود لسريره، أملا فى النوم عله يأتيه بإجابات تشفيها من أرقها.

وحين يخرج نور الصباح يجهز الفطور، ويرش أمام الفرشة، ويرتبها، ويلقى فى روح زوجته بالأمل كى تعاود نشاطها، ثم ينطلق إلى عمله وسط الشوارع، متيقنًا من تجاوز محنتها، وسعيدًا بوجودها فى حياته، وممتنًا للقدر الذى يمده دائمًا بالعون.

(٧)

كان يومًا غريبًا فى حياته، فبعد خروجه من الحارة، غاص فى الشوارع ساعات طويلة مناديًا على بضاعته، وحين توقف أمام إحدى النواصى لفتت نظره إحدى اللوحات المعلقة فوق بناية بعيدة معلنة منازل للبيع.

تخيل نفسه يطير ويصعد أدوار المبنى العالى بقفزة واحدة، يتوقف أمام اللوحة، ويمسح زجاجها ليتأكد من وجودها وينظر بعينه الباقية بين الأشجار المحيطة بمنازلها كقرد محروم من الحديقة.

هرول إلى داخلها وسار بين المنازل كمسحور، مراقبًا وجه امرأة تتدلى بنصف جسمها الأمامى من أحد الشبابيك، ونادته باسمه، وأمرته كزوجته "شوق" ليصعد إلى حجرتها، هرول داخل منزلها ملبيًا طلبها، وصعد السلالم باحثًا عن باب شقتها.

أخذته السلالم إلى حديقة أخرى مملوءة بكائنات غريبة وزهور وطيور وحيوانات، نظروا جميعًا مرة واحدة إلى عينه الباقية وسألوه: "إنت مين، وإيه اللى جابك هنا؟"

وقبل أن يرد عليهم وجد نفسه على ناصية الشارع، حاملاً مناديله وأقلامه، محاولاً تفادى صراخ السيارات وسباب المارة.

طوال النهار كان كلما نظر إلى إحدى اللوحات أو المبانى يتخيلها حدائق متحولة إلى طيور وأنهار وجبال، يحاول إبعاد كل هذه الصور عن مخيلته، لكن عقله كان متيقظًا، ودون إرادته كانت الصور تجرى بأعماقه وتجبره على الاندماج بألوانها ليتحول إلى جزء منها.

لم يرزق بمشتر واحد على غير العادة، فقرر العودة إلى حجرته، وحينما وصل إلى باب الحارة استوقفه الناظر وسبه محاولاً إيذاءه، واتهمه بأنه قام بعمل تعويذة لزوجته أدت إلى خرسها وجعلتها لا تستجيب لرغباته.

تجاهله مستعيدًا صوت العجلاتى الذى كان يرد على "سكسكة" قائلاً: "لست الشخص الذى تتحدث عنه يا حضرة الناظر"، ورغم أن الرجل الذى كان يراقب زوجته مع البقال يعرف أنه لم

يلمسها بحجرته يوم حاولت اغتصابه، مع ذلك حين شعر بنظرته الساخرة استكمل سبابه والتعدى عليه بيديه.

استعاد وعيه، ونظر مملوءًا بصبر العجلاتى وقوة المراكبى إلى عين الرجل، أملاً فى الدخول إلى مخزن أعماقه، لكن "عوف" ضربه على وجهه بقوة صارخاً: "غور يا أخى وشوف مراتك راحت فين؟! "

عاد إلى منزله مكدورًا لفشله فى الوصول إلى مخزن المشاعر المخبوء بأعماق الناظر، ونادى على زوجته فلم ترد، دخل الحجرة باحثًا عنها، أزاح الباب وقلب الأقفاص فلم يجد إلا جثة "هنية" الحامل ميتة وسط الخضار العطن.

تركها كالجيفة، مواصلاً البحث عن زوجته، وهرول بالعرجة إلى الحارة وسأل الجيران الذين نظروا إلى عيونه وصمتوا.

رغم ذلك تنحنح البقال بلسانه الطويل خلف بترينته، ولمَّح إلى استضافتها بعض الصيع فى غيابه، وأشار بخبث إلى أن مثل هؤلاء الكافرات لا يصلحن إلا للنوم بالشوارع.

تجاهل صوته، ومشى من أمامه دون أن يلتفت للمارة الذين يتصنتون عليه.

سار مسافاتٍ طويلة محزونًا غير عابئ برائحة الأسواق، ودون أن يدرى وصل تحت الكوبرى الذى كانت زوجته تجلس وسط كراتينه، داعبها محاولاً الاطمئنان عليها وإرجاعها، لكنها رفضت العودة، وطالبته بتركها فى حالها.

حاول معرفة سبب حزنها، وسألها إن كان قد قصر فى شىء، أو ظهرت منه بوادر جعلتها تشتاق إلى نوم الشوارع، لكنها لم تكن تملك إجابة.

وحين ألح عليها لتعود معه، وهو سيتكفل بإصلاح كل شىء، صرخت فى وجهه، ووبخته كى يتركها، ولا يعاود البحث عنها مرة أخرى.

تجمع الباعة على صراخها ونزلوا عليه بعصيانهم كأنهم يضربون فى جثة ميت، وهدده "سيد الزبال" قائلاً: " طلقها، وبضاعتك وفلوسك مقابل المتعة، ده حكم الشرع يا أعرج، إياك تيجى هنا تانى لحسن هقتلك يا أهطل".

نظر إلى عين زوجته فوجدها مبتهجة مملوءة براحة البال، حاول اختراق جدران أعماقها المشبعة بطعم القسوة والخطف اللذين تراكما داخل روحها خلال رحلتها الطويلة، فلم تستجب لهالته ، فمسح الدم عن وجهه، وألقى عليها يمين الطلاق، وقام فاردًا طوله مقررًا تركها تنعم بحياتها الجديدة.

" حلم "

(١)

نظر إلى السماء وداس على العرجة مذهولًا، لا يدرى أين يذهب أو ماذا يفعل؟ سار ساعاتٍ طويلة دون توقف غير شاعر بآلام جسده، ولم ينتبه لأصوات التكاتك التى كادت تدهسه أثناء مراقبته لأسراب الطيور المهاجرة.

مشى وسط البشر الذين يملأون الشوارع غير عابئ بهديرهم، متحسسًا بأذنيه دبيب النمل خلف الحوائط، ولم يبالِ بالضحك الشبيه بالبكاء المندفع من الحوارى التى يعبرها، مشغولاً بعيون اليمام الذى يغنى حوله كأنه يرشده إلى طريقه.

وأمام خرابة واسعة تمتلئ بركام المنازل المحاطة بعشرات الكلاب والقطط، جلس يتأمل عيون الفئران التى تجرى حوله محاولاً تذكر وجوه جيرانه أو أصواتهم.

مدد ظهره على الأرض، ورأى بياض السحب يتحول إلى دوائر من الحمام تلف حول بعضها لتشكل هالات ونجومًا، كأنها مصابيح تضىء خلفية السماء الزرقاء.

دقق بعينه الوحيدة فى بركة مياه بجواره، وشاهد ظل السماء يتمدد بداخلها، فانفتحت بداخله طاقة وبلعت فى ضيائها كل الذين عرفهم، شعر بنفسه خفيفًا مثل النسر، فألقى بروحه وسط السكون الذى دفأه بحلمه يوم ولادته، ونام كالميت.

تيقظ بعد ساعات دون أحلام على صوت الكلاب التى خففت بنباحها وحشةَ الليل، وقام مستكملاً سيره، متحاملاً على العرجة بيده الباقية حتى حطت جثته أمام مقهى على شاطئ النهر.

لم يكن حزينًا، أو مدهوشًا مما جرى فى حياته لنسيانه كل البشر الذين عاشرهم، وحين نهره صاحب المقهى ليفيق من غفوته استعاد روحه، وحكى للرجل حلمه الآمل فى الوصول إلى الضفة الأخرى للنهر لملاقاة باقيه، نظر القهوجى إلى جسده المنهك، وسلمه مفتاح منامة تقع خلف المقهى على أن يعمل معه فى الصباح.

سار ببطء فى ممر محاط بالأخشاب وركام المنازل إلى الركن الصغير الذى سيؤوى جسده، وتخيل نفسه يدخل ماسورة من النور.

فتح قفلها بالمفتاح، ولم يهتم بأكوام التراب وأعقاب السجائر المتراكمة على الأرضية، ورفع البطانية الملقاة على الأرض، وخبطها فى الهواء بيده الباقية، وفردها ونام ممتنًا بسقفها الخشبى الذى تخيله كفوفًا بيضاء تتأهب لاحتضانه.

(٢)

رغم ذراعه المقطوعة وعرج قدميه لكنه كان أسرع من الريح، فوحده يخدم العشرات دون أن تكل قدماه من النط والدوران والبهجة، لدرجة أن رواد المقهى اعتقدوا أنه مخاوى للجنون.

ينهى ورديته الطويلة، ويذهب لمنامته، يفرد طوله على السجادة، هانئًا بأحلامه التى يستكملها ليلة بعد أخرى، حول نهر السعادة الذى يتدفق بداخله ويحمله فوق مركب من الزهور يسبح بين الجزر فى سلام، ويحط بمحطات متنوعة كل ليلة، فينزل مبهوجًا، ويسير فى شوارعها موزعًا غزل البنات على المريدين.

فى أحد أحلامه اندهش من رؤية العجلاتى مرة أخرى يقف بانتظاره على أحد المراسى، استقبله الرجل بود وأخذه بحضنه قائلًا: "ارجع بزهورك يا زبلة، فالكائنات على المحطات الباقية تنتظر وصولك"، سأله بغضب: "لماذا ترفض تسليمى وردتى يا موسى؟" فضحك العجلاتى قائلاً: "لا تستعجل، واستكمل طريقك حتى تفرغ حمولتك".

كان يحدث نفسه بصوت مسموع أمام رواد المقهى عن حورية تنتظره قائلاً: "ستقف فى الشارع أمام المقهى، وتنادى علىّ باسمى، وتأخذنى بحديقتها، وتحكى حكايتها مع الملائكة وتطلب منى المكوث معها للأبد، ستخلعنى ملابسى وتحممنى بماء الورد".

كان يتخيلها بوجهها المنير وصوتها العذب كنسمة، ويقول للقهوجى: "نعم ستأتى، وتدخل البهجة إلى روحى، وتأمن على نفسها فى وجودى، ستسعد لرؤيتى كنهر محبة، وتنسى كل آلامها، وتذوب فى عينى الوحيدة كنقطة مياه".

رسم لنفسه، أو كما صورتها أحلامه، صورةً لقديسة، وظل يحكى عن هالتها الرقيقة كالندى لكل من يقابله، وانتظر على ناصية المقهى أيامًا طويلة كى تمر أو تنادى عليه: "زبلة، يا زبلة، تعالَ، خذ نصيبك".

كلما لمح طيف فتاة أو سمع صوت عصفورة، جرى إلى ضلفة الشباك المغلقة ليفتحها، وينظر إلى الشارع متأملاً ألوان الزهور المحيطة بالمقهى، ويعود مناديًا: "أيوه جاى، واحد شاى، واتنين قهوة مظبوط".

حين يراه صاحب المقهى عائدًا من جوار الشباك ينظر إلى عينه الباقية، ويأخذه بحضنه ويطمئنه على وجودها، قائلًا: "ليس عليك إلا العمل وانتظار المدد".

(٣)

قبل انتصاف النهار شاهد امرأة جميلة تمر من أمام المقهى، ورغم أنها لم تتوقف أو تنادِ عليه، لكنه هرول وراءها ناسيًا القهوجى ورواده، اقترب منها وسألها إن كانت بحاجة لأحد يرفع عنها أكياس الخضار، لم تتردد، ووافقت سعيدة بشهامته.

حمل أكياسها ومشى بجوارها غير عابئ بعجزه، دخلت فى شارع ممتلئ بالباعة والضجيج، فقطَرها غير عابئ بقسوة عيون المارة أو سخريتهم، انتقلت إلى الرصيف لتجنب الزحام، فواصل سيره وسط الجموع كأنه نحلة دوارة.

يمسك الأكياس بيده الوحيدة، وينظر بعينه الباقية إلى هالتها، ويدوس على العرجة كأنه فى سباق مع الحياة ليحصل على المكافأة.

حين وصلت إلى منزلها، تسمر فى مكانه، وانتظر دعوتها لدخوله، لكنها شكرته، وأخذت أكياسها، ودخلت مثنية على كرمه، وأغلقت بابها.

انتظر لحظة متأملا منزلها المحاط بالكراكيب، وقال لنفسه بصوت عال: "لا تختبئ امرأتى خلف أبواب موصودة لأنها تعيش فى البراح، وتمتن لوجودها فى الحياة، لا ليست هذه مرادى، لأن الأخرى تقف على الشاطئ فى انتظارى".

"لا ليست هذه أملى، امرأتى ستنادينى باسمى كالعصافير، وتبتهج لرؤية عينى، وتطالبنى بالسباحة معها فى نهر لا توجد على شطآنه مقاهٍ أو أسواق أو كبارٍ أو حرائق، امرأتى مشعة كالشمس، ومعطاءة كالنهر، ومضيئة كالقمر، وحنونة كهنية".

أثناء وقوفه متأملاً السماء، خرج من بابها رجل شبيه بحنفى البقال، داعب لحيته فى غضب قائلًا: "غور فى داهية يا بن المجذوبة، هلوس بعيد عننا، مش ناقصاك".

نظر الرجل حوله إلى الأرض، وأمسك بحجر صغير، وألقاه فى وجهه، فتيقظ وهرب من أمامه عائدًا للمقهى.

(٤)

استقبله الرواد بحزن وعزوه فى صاحب المقهى الذى مات واقفًا على نصبة الشاى خلال غيابه.

غسَّلوه، ووصفوا جثته داخل الكفن، وألقوها داخل خشبة الميتين ونقلوها إلى سيارة محطمة، وذهبوا إلى المدافن ليهيلوا التراب على جثته.

كان حزينا لغيابه، وتخيل أن وجوده كان سيمنع الطيور الكسيحة من أخذ روح الرجل الذى داوى أحزان الفقد التى ملأته.

جمع الكوبيات والصوانى ووضعها على النصبة وكنس الأرضية، وأغلق الباب وعاد إلى منامته غير عابئ بمصيره.

شاهد رغم يقظته كل جيرانه الذين احتضنوه وطالبوه بنصيبهم من الورود التى يوزعها فى محطاته المتنوعة ناسيًا أحباءه وأهله.

وحين دخل فى النوم، عادوا حوله وطالبوه بحصصهم، نظر بحب داخل أعماقهم ونادى عليهم بأسمائهم، واحتضن كل واحد فيهم وسلمه وردته التى تنادى على صاحبها ضاحكة، بكى على صدورهم كأنه يذيب نفسه بمخزن مشاعرهم المخبوء بأعماقهم.

حين انتهى من تسليم كل واحد نصيبه، زفوه إلى منزل "الفرماوى" ليودع "محاسن" البريئة، ويقبل ابنتيه، ثم طاروا بروحه إلى فرشة "لواحظ" التى دخلت فى حضنه كوليفها، وتركته مهرولة لتعد وجبته من البطاطس، داعبها وذكرها بأسماء الزهور التى أطلقها على خضارها، ودار حول كلابها ووزها وسلمهم ورودهم ليتحولوا إلى طيور سابحة وسط الفضاء.

سمع صوت "توبة" يعاتبه من ظهره، فجرى إليه كأن أقدامه سليمة، وطبطب على كفل حماريه وقبلهما، ولف حول رقبتهما طوق الورد، وأعطى لأبيه وردته طالبًا سماحه.

وحضرت "شوق" راغبة فى ملامسة نوره، وطالبته مثل الآخرين بوردتها، فمسح جبينها وقبلها وسلمها زهرتها التى أزالت من أعماقها القسوة وملأتها بالرحمة.

الجميع جاء بمحفله سعيدًا بعودته، كان يضحك ويسلمهم حصتهم من أثير المحبة، ويغسل مشاعرهم ويطهرها ليتسامحوا ويقبلوا، ويطيروا إلى محطاتهم ليتسلموا زهور المودة ويبحروا فى نهر السعادة.

تيقظ فى الصباح، ودون أن يفكر هرول إلى المقهى، رفع بابها الحديدى بيده الوحيدة، وجهز العدة، ورش المياه على مدخلها فى انتظار زبائنه.

كان أسعد يوم فى حياته، لم يشعر بالجوع أو التعب طوال النهار، وظل يخدم الرواد بمفرده ويضع مشاريبهم على الطاولات كأنها باقات زهور.

شعر بنفسه كأنه طائر مسكون بالسحر لرؤيته وجوه الزبائن بظهره، فحينما يضع البن أو الشاى على النار يسمع الكنكة تقهقه، وتحدثه ليرفعها من فوق اللهيب، وتطالبه كالآخرين بتسلم نصيبها من رحيق المحبة.

(٥)

عندما حل المساء دخل أولاد القهوجى وزوجته المقهى وزجروه كالكلب، واتهموه بسرقة مدخرات والدهم، وأخذوا ما فى جيبه وطردوه.

لم يتأس أو يغضب، كل ما شغله هو إزالة السواد من عيونهم التى تمنى اقتحامها، وتحطيم أسوار أعماقهم الصلدة، ليطهر مخزن مشاعرهم من الظلام.

لكن القسوة التى تراكمت بداخلهم طوال السنين جعلتهم كالعميان، تأمل أصواتهم الصارخة منتظرًا رؤية عيونهم، لكن زوجة القهوجى ضربته على رأسه صارخة ليتيقظ ويغادر قبل ذبحه.

رحل محزونًا لعدم مداواة جروحهم، وسار فى شوارع الحى الملاصق للنهر، مشغولاً بلون الوجوه التى لا تنظر وراءها، وتسير دون تباطؤ إلى مجهول ليس له آخر.

نظر إلى الشمس ممتنًا لوجوده تحت نفس السماء التى تظلل الكوبرى، والسوق، وفرشة أمه ومدفن ابنتيه وزوجته والقهوجى.

عندما شعر بأسراب الحمام تدور فوقه فى السماء توقف على غير إرادته، وجلس على الرصيف محاولاً تذكر المكان الذى تنتظره فيه فتاة أحلامه، وقال لنفسه: "لم يكن حيًا شبيهًا بهذا الحى، كانت بيوته بيضاء، وشوارعه نظيفة، ومقاهيه مفتوحة على الحدائق، ورواده مبتهجين ودودين".

دخل محطة القطار التى تقع بواباتها إلى جوار الرصيف، وتوجه إلى الشباك، وقطع التذكرة قائلاً للموظف: "أبعد محطة ممكنة!" وحين لمح الرجل يده المقطوعة، وعينه الضائعة لبى طلبه فى صمت.

أعاده الصراخ والضجيج الذى ملأ المحطة لتذكر طيبة "شوق" وأحضانها، وللغرابة أنه تذكر فى نفس اللحظة وجه "محاسن" البرىء، ورنة صوتها الراضى، وبهجة عيون "نور" و"سعدة"، ودفء أعماق "لواحظ" وكلبتها الوفية، وامتنان الجزمجية و"أنيسة" و"سكسكة"، نظر إلى السماء بحب لرزقه كل هؤلاء الأحبة خلال رحلته.

اقترب من باب القطار، ودخله بلهفة كأنه ذاهب إلى الجنة، جلس بجوار الشباك، وتحرك القطار فى بطء، ثم صرخ وداس بعجلاته على القضبان، كأنه فى صراع مع الأماكن التى يتخطا، ظل يراقب الأحياء والبيوت التى تختفى وراءه بانبهار، منتظرًا وصوله إلى الحى الذى يعرف رائحته.

حين توقف القطار فى إحدى المحطات البعيدة، نظر من الشباك إلى الحدائق المحيطة بها، وتذكر وجه فتاته التى تنتظره بالورد، فشعر أن أمنيته أوشكت على التحقق.

قام مسرعًا غير عابئ بعرجه، وأسرع لينزل من الباب قبل انطلاق القطار الذى تحرك لمحطته التالية.

انتفض، وأزاح الركاب بجسده النحيف من طريقه ، وألقى بنفسه على الرصيف، راغبًا فى ملاقاة نصفه الآخر الذى ينتظره ليكتمل.

(٦)

أثناء دهسه تحت عجلات القطار، شاهد نفسه يركب قطارًا مغايرًا، يجرى بخفة على العجلات للعبور إلى الضفة الأخرى التى رغب فى الوصول إليها فى كل أحلامه.

كان منبهرًا بألوان الحقول وعيون الأطفال التى تسبح فى المياه الممتدة بجوار القضبان.

هرول قطار أحلامه بسرعة مهولة، محاولاً تخطى محطات الزمن ليعبر بروحه إلى الضفة الأخرى لملاقاة نصفه الآخر.

وحين وصل القطار إلى أول الجسر الذى يحفظ شكل منحنياته، شعر بنفسه يطير من فوق كرسيه قافزًا من شباكه لينزل قبل عبوره الجسر غير عابئ بملاقاة نصفه الآخر القابع فى الضفة الأخرى الذى كلما كان يجتهد ويكافح ليلاقيه يهرب مفقودًا.

نزل على الضفة التى يعرفها، ووجد كل الذين قابلهم بحياته فى انتظاره، باركوا قراره وألقوا الورد على وجهه، مندهشين من قوته وعزمه اللذين أظهرهما فى اللحظة الحاسمة قبل عبور القطار إلى محطة جديدة مجهولة، لامسوا روحه ممتنين لثقته باكتماله.

حتى القهوجى الصامت حضر مع أحبائه وهنأه على إيمانه وقبوله الطريق قائلًا أمام الجمع: "كنت أعرف أنك ستصل إلى مخزن أعماقك وتزيل الاحتياج والرغبة وتضع مكانهما الرضا والقبول".

حضرت العصافير والوز وحمارى "توبة" وخضار أمه، وذكروه بحكاية الكائن الذى حينما يشبع ولم يعد بحاجة إلى الأكل والهواء تتحول نواقصه إلى أثير يغير القبح إلى أشجار وارفة، وأعلنوا اكتماله.

نظر إلى وجوههم المحبة، وشعر بنقطته البيضاء تملأ عيونهم، فذاب داخلهم وتحول إلى قطرة مياه داخل نهرهم الطويل.

الغريبة أن العجلاتى ظهر هو الآخر كفقاعة وسط النهر، أثنى على روحه الآملة، وأذابه بداخله ليتحول إلى نسر جسور يطير بخفة نحو شاطئ البحر الذى نزل عليه يوم ميلاده، ليعاين سكون البراءة والنور والذى تلاشى فى ضيائه.

كان بين الحياة والموت حين نقل المارة جثته إلى المشفى، محاولين علاج جرحه أو إعادته من الموت، وخلال هذه الفترة ظل حيًا بحلمه الطويل الذى لم ينته.

(٧)

عندما تيقظ بعد أيام فى حجرته بالمشفى نظر من شباكها المفتوح، مدهوشًا من ألوان الزهور المحيطة بالمبنى، تصنت على صوت العصافير العذب، فتيقن أن السعادة المنتظرة تقع خارج هذه الجدران.

شد نفسه وحاول النزول من فوق السرير، لكنه لم يتمكن من الجلوس، نادى مدهوشًا من ثقل جسده، فدخلت الممرضة تطمئنه على حياته.

أبلغته بأن الأطباء اضطروا لاستئصال إحدى قدميه خلال العملية لقطع شرايينه وأوردته فى الحادثة، وإلا عرضوا حياته للخطر.

تحسس مكان الجرح، وشعر باليمن، قائلا لنفسه: "لا يهم وجودها من عدمه، لأنها كانت تعوقنى عن السير مفرودًا كباقى البشر".

طبطبت عليه الممرضة لتواسيه وتخفف أحزانه التى توقعت أن تميته، وكادت تبكى لألمه، شكرها على طيبتها ونظر داخل عيونها التى تراءى له بياضها كحديقة وسط براح السماء، وشعرت الفتاة بمحبته فاحتضنته كأخ وبكت.

امتلأ بالعزيمة التى كادت تجعله يطير، وشد جسمه إلى أعلى، مستندًا على ذراعه الباقية، واضطر للانتظار لحظة كى يلتفت برقبته ليستمتع بعينه الوحيدة بوجوه النزلاء الآملة فى الشفاء.

جلس على مقعدته مبهوجًا من براءتهم، وحكى للممرضة حلمه الذى راوده أثناء الجراحة والذى اكتشف بسببه طريقه، وامتن للقطار الذى قطع قدمه وجعله يغفو عدة أيام، راحلاً داخل قطار سحرى مستعيدًا حقيقة وجوده.

طلب منها تدبير عكاز كى يخرج لتوزيع وروده على المريدين، فبادر أحد النزلاء الذى سمع الحكاية وأعاره عكازه، وبكى الرجل مندهشًا من قوة الإنسان الحالم بالحب.

قام "زبلة" من فوق السرير، واستند إلى العكاز بقوة، وداس بقدمه السليمة على الأرض فاردًا ظهره لأول مرة فى حياته، خارجًا من باب المشفى لتحقيق حلمه.

"انتهت"

"القاهرة"

"٢٠١٧"

كرم صابر .. زبلة .. رواية

شاهد نفسه مقسومًا إلى نصفين، نصفه العاجز يقف على ضفة نهر مملوء بالهيش، ونصفه السليم يقف على الضفة النظيفة، وينادى بنصف لسانه كى يعود نصفه العاجز إليه.

لم يكن يدرى أيهما هو "زبلة" الحقيقى، لكنه شاهد نصفه العاجز يبادر بهمة، ويلقى بنفسه فى المياه راغبًا الوصول إلى الضفة الأخرى ليلتحم بنصفه السليم ويكمله.

عافر بنصف جسده، وضرب المياه بقدمه العرجاء، وكاد يغرق عدة مرات لولا قيام أحد المراكبية بإلقاء المجداف بجواره، ليمسكه بنصف أسنانه كأنه طوق النجاة

